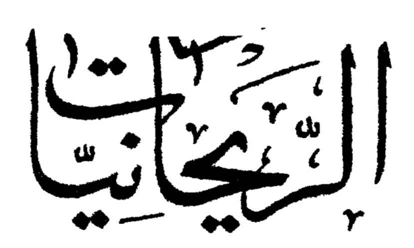
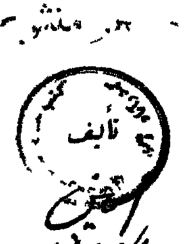


[illegible]

[illegible]



﴿ طبعة ثانية ﴾

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣ و ١٩٢٠

الريحانيات

الجزء الاول	يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية وبذور للزارعين
الجزء الثاني	يحتوي على خطب ومقالات انتقادية وشعر منثور
الجزء الثالث	يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية وخطب
الجزء الرابع	يحتوي على شعر منثور ومقالات اجتماعية وسياسية

ثمن كل جزء من الاجزاء ١٥ غرشاً مصرياً
او نصف ليرة سورية * او ثلاثة ارباع الريال في الاقطار الاميركية
او روبتين ونصف في البلاد العربية والمملكة العراقية

تطلب هذه الاجزاء من يوسف صادر صاحب المطبعة العلمية
والمجلة القضائية في بيروت * ومن جميع المكاتب السورية والمصرية



الريحانيات

وهي مجموعة مقالات وخطب

وشعر منثور

تأليف

امين الريحاني

الجزء الاول

يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية وبذور للزارعين

مصدر برسالة من خط المؤلف

﴿ طبعة ثانية ﴾

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٢

بذور

والان اجيب انا في نوبتي وابدي انا ايضاً علمي . . . . . . لا احابي انساناً ولا اطري بشراً

ايوب ٣٢ : ٢١

* * *

لان يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من كنوز الدنيا

حديث شريف

* *

ولو لم يكن الا ما يشككك في [illegible] لكفى [illegible] نفعاً . فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة

الامام الغزالي

*

ان عصرنا هذا هو عصر [illegible] التي تخضع لاحكامه ولكن الكثيرين من الناس [illegible] الدين والشرائع فوق [illegible] وتخرج [illegible] احكامها . فاذا فعلت ذلك [illegible] الاحترام الذي [illegible] التي لا [illegible]

Critique of Pure Reason

أيها القارئ العزيز

واضح لك أن رفيقي في هذه الصفحات [illegible] إن كنت لا تستطيع أن تسير وإياي
إلى النهاية. سألتك باسم الحب وباسم الحقيقة بل بحق الله الذي هو الحب
والحقيقة [illegible] [illegible] فقط حتى إن كنت لا تتجرد عما ورثت
آباءك وأجدادك لا تحجبنا في السير بنور الشمس ونور الكواكب في
مسيرك. جرد نفسك ولو في ساعات من أطوار الجبال وتعالَ
نحج معاً. حتى وصلت إلى كعبة الحقيقة وأنت في منزلك تجد
[illegible] [illegible] أثواباً أخرى جديدة إلى جانبها. فأما أنت
تعود إلى ما كنت عليه فتلبس ما ألفته وتسير في سبيلك وإما
أنت [illegible] [illegible] [illegible] عن الرقع والفتوق
[illegible] [illegible] [illegible] فأنت الملك من حيث
[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]. وأنت إذاً
[illegible] [illegible] [illegible] رفيقنا فلنسر رافعاً
[illegible] [illegible] [illegible]. [illegible] وعلى
[illegible] في [illegible]

أديب

[illegible]

قل كلمتك وامش

وادي الفريكة ①

او العود الى الطبيعة

وادي الفريكه مهيب وجميل غير ان هيبته اكثر من جماله وهو عميق ملتو ينحدر من قرية صغيرة ليغسل رجليه في نهر الكلب . هو صغير ولكنه كثير الزوايا والاسرار يجمع بين الدلب الذي لا يعيش الا بالقرب من الماء والصنوبر الذي يكتفي بمشاهدة الماء من اعالي الجبال . وفي الشتاء تنثر الطبيعة تحت قدميه ازاهر البرقوق وتكلل رأسه في الربيع وفي الصيف بازاهير [illegible] . ومع هذا الجلال [illegible] سكنيه كثيراً من [illegible] . نعم ان ملتقى الجبال [illegible] وادي الفريكه . [illegible] تعانق جبال القاطع جبال كسروان ومن اعطافها تتدفق في [illegible] المياه التي تجري في نهر الكلب . هنالك تتشابك الاعناق وتنحني الرؤوس وتنضغط الخدود بعضها على بعض . وفي الصباح قبل ان يغيب القمر وتشرق الشمس [illegible] فوقها [illegible] ا الى الابد : تشرق الزهرة من وراء جبل صنين وترسل اشعتها الباهرة فوق الجبال التي [illegible] بعضها بعضاً [illegible] ساكني وادي الفريكة . و في هذا الوادي [illegible] والمنحدرات المخوفة

والوهاد العميقة والكهوف المظلمة ما لا يرغب الناس في الانحدار
اليه . فهو يقول للفلاح : تعالَ وفأسك ومنجلك . ويقول لمحب
الطبيعة تعال بافكارك وتصوراتك كما تقول الرياض لمحب السرور
تعالَ بالعود والدنّ .

في صباح يوم من الايام التي تقف حائرة بين الخريف والشتاء
لبَّيت دعوة الوادي . خرجت من بيتي بمعطف مشمع وأخذت
أقفز عن الربى وأدبّ من تحت الصخور حتى وصلت الى قلب
الغاب . نزلت لاتفقد الوادي بعد ان اغتسل بسحابة الخريف
الاولى . هبطت على عادتي لا ترويحاً للنفس كما يقال بل ابتغاء
الالهام والفائدة : نعم انا اقصد الوادي كما يقصده الفلاح ولكن
فأسي ومنجلي يختلفان شيئاً عن فأسه ومنجله واحمالنا ونحن
عائدان تختلف كثيراً بعضها عن بعض . على ان حطب الغاب
يفيد في هذه الايام اكثر من حطب الخيال والفلاح هو الفيلسوف
الحقيقي . ولكن ذلك قلما يعزيني . قد انحدرت الى الوادي ووقفت
على صخر يشرف على النهر وتأملت فعل العواصف والانواء الليلة
البارحة – تلك الليلة التي دخل فيه الشتاء بعرسه الطبيعة . كيف
لا ومياه النهر والسواقي حمراء كالدم . . . . وقفت هنالك مبتهجاً
فاحسست بان روحي انفصلت عن جسمي وطارت فوق الاشجار
البليلة وفوق الصخور الشهباء في الصيف السوداء بعد الامطار .
طارت وطار معها ما تراكم على رأسي وقلبي من الافكار والخيالات

والاماني . طارت مسرعة صامتة كما يطير السنونو والحسون في هذا الفصل . شعرت بان روح الوادي قد اتحدت فيّ وروحي قد اتحدت بالوادي . فانا انعكاس الوادي سواء : في نفسي ما فيه من الظلال والخيالات والكهوف . في نفسي ما فيه من الصخور الشاهقة والمنحدرات الهائلة والسواقي الفائضة والانهر الجارية . في نفسي ما فيه من العصافير والجنادب والنسور ومن الهوام والذئاب ايضاً ايها القارئ البعيد القريب .

٢ — صعدت قليلاً وجلست تحت خرنوبة غضة وتنفست متنشقاً هواء الاحراج المنعش فكاد يسكر نفسي شذى في حفيف الاوراق . في ظل هذه السكينة يكاد المرء يسمع خفقان قلبه . وعند توقلي في الصخر سمعت صوت رفرفة العصافير فالتفت الى جهة الصوت واذا بسرب كبير من السنونو فرّ من امامي ففكرت في نفسي قائلاً : لو كان للطير ان يقرأ الافكار لما كان هذا السرب يفر الآن من وجهي بل كان يحييني مغرداً فاقبّله ويقبلني ويسير بعدئذ كل منا في سبيله . ولكن اخواني البشر لم يعوّدوا الطير مثل هذا والسنونو لم يقرأ شيئاً حتى اليوم مما اكتبه . الى الآن لا يعرفني . وهل يلام على ذلك والانسان نفسه لم يزل يعجز عن فهم ما انطوى عليه الانسان ؟

٣ — السكينة بعد العواصف — أرأيتها في زمانك ؟ هي عندي نوع من الراحة الابدية . السكينة في الوادي تكاد تكون في

هذا الفصل غيرعالمية . فما انعشها للنفس وما اجمل وقعها على الاذن والقلب ! ولو جاز ان نقول ان للسكينة الحانا وانغاماً لقلت انها اشجى في مسمعي وابدع من الحان امهر الموسيقيين . وما معنى الالحان التي لا تسبقها وتتلوها السكينة . انها عندي كلا شيء . بل هي ضجيج مزعج مملّ . واما العبير المنتشر في الغابات بعد الامطار وخصوصاً بعد السحابة الاولى من فصل الشتاء فيحيّر الكيماوي والنباتي والعطّار . فما أذكاه واطيبه وما أبعده واغربه ! ايفاخرني الخليع بروائح الحشيش والافيون وحبوب المسك والعنبروغيرها من « نسخات » المصريين ؟ فوالله ان روائح الغاب والوادي بعد الامطار لاطيب منها شذًى وابعد منها غرابة واشد منها فعلاً في النفس .)

مرّ علي ساعة من الزمن وانا اتنشق هذه الروائح وافكّر في الحشاشين والروحيين والبوذيين — في اولئك الذين يسكرهم الايمان او الافيون فيرتفعون باحلامهم الى ما وراء الطبيعة او ينحدرون الى ما تحتها فنهضت وقد تخدّرت اعصابي من أرج الاشجار النديّة وافيون الارض المديّة ونظرت بعين البصيرة الى الافق من خلال الاغصان فتنسمت من الغيوم المتراكمة فيه خبراً وقلت في نفسي : الى البيت ياولد الى البيت ! فها قد اختبأت في اعشاشها الطيور وعادت الى اوكارها الحشرات والهوام وعدت نحو حظائرها الماشية . ها قد انهزمت السكينة امامَ الرياح وهبت

الاوراق الصفراء البالية من الادواح تختبئ في الغياض والادغال
وانت – فما الذي يبقيك هنا عُد الى عشك قبل ان تحاصرك
الرياح. عُد الى عشك قبل ان تسد دليك صوارها الغيوم وتطلق
مدافعها – قبل ان ترسل عليك السحب شآبيبها. فتبعت نصيحة
نفسي ونظرت حولي باحثاً فرأيت بالقرب من شجرة صنوبر
كبيرة صخراً قد نقرت فيه الدهر والاعاصير مغارة صغيرة
فتقدمت نحوها ودخلت تحت الصخر اليها [illegible] بعد
ذلك حكمة الطبيعة ورحمة [illegible] لا [illegible] القاري
ان الطبيعة لا تظلم [illegible]
الهائلة المخوفة [illegible]
الاعاصير فيتفرجون [illegible] في نعيمهم
[illegible] من
الحياة الدنيوية ولا يعرفون [illegible] من اللذات
الروحية والجسدية [illegible]
قائلاً : امش تحت المطر الهاطل [illegible]
بل لقبلاتها وهي تسيل [illegible]
الغاب او في الوادي [illegible] على جسد من
الذوبان ولا تنزل الى البيت [illegible]
تحمدي [illegible] مظاهر الطبيعة
واعتقد ان كل [illegible]

الظلال فاشغل فكرك او قلبك بشيء تراه حولك ولا تكن من الخاسرين . هذه الفرص ثمينة يا صاح وهي اندر من الغراب الاعصم . ولعلك لا توفق ايضاً للاقتراب من الطبيعة في شدة غضبها — في ساعة تهيجها واضطرابها . فاقترب منها الآن ! تعلّم منها الثبات والاخلاص واستمد منها القوة والجلال .

٣ (اذا كنت في سفينة تتقاذفها الرياح من كل جانب واوشكت تبتلعها الامواج اتضيع وقتك بالعويل والنحيب صارفاً النظر عما يتمثل حواليك من جمال الطبيعة وهولها وجلالها . لا اقول لك لا تصلِّ الى الله لينجيك من الغرق في مثل تلك الساعة ولكنني اقول اشكره تعالى اولاً وآخراً على انه جعلك ممن شاهدوا هذا المشهد العظيم ووقفوا هذا الموقف الرهيب . الا تظن مشاهدة البحر ساعة هيجانه تساوي شيئاً وخصوصاً اذا كنت في مركب واقع في شبك امواجه المزبدة . هل لنا ان نختبر مثل هذه الاختبارات النادره كل يوم . ولنفرض اني مت في الوادي تحت الغيث الهاطل او سكنت قعر البحر تحت الموج المتراكم اينقص من نفسي الازلية شيء ? فعلامَ الخوف والجبن ? ايخشى الانسان ربه ? ايحاذر من الطبيعة .. ? اتوجس النفس الازلية خيفة من شيء زائل ?)

قد محصت نصائح القوم ووضعت ما بقي منها في جيبي وسرت مع نفسي سيراً بطيئاً بعيداً عن طرق الوادي الضيقة بعيداً

عن تلك الخطوط الصفراء التي يراها التائه عن بعد فيقصدها ويلازمها مطمئناً . سرت بين [illegible] الوادي وعروقه طالباً في القلب مركزاً جبلاً قريباً [illegible] من [illegible] صنوبره الشامخة وقد تساوت كلها حجماً وقداً [illegible] لا . [illegible] هنالك شبه عرائس خرجن من خدورهن [illegible] ليهن . وهل تظنني خاطرت بنفسي اذ لبيت الدعوة ؟ لا وحياتك ايها القارئ . فقد خاطرت بشيء من [illegible] و[illegible] التي [illegible] النفس . او ليس من المحمدة ان [illegible] كافة ذلك اوجه هذا [illegible] الاعتياديين . انا لا اذكر سوى اللذات الروحية حينما [illegible] من الطبيعة . ومتى عدت الى المدينة [illegible] . هنالك سرور ينسيني النفس كما ينسيني [illegible] جسد . واما الكوارث والحوادث التي [illegible] ويبالون [illegible] بها فمتى جاءت تراني [illegible] السفر .

الطريق التي اتخذتها الى الصنوبر في الوادي هي الطريق الى الحقيقة في العالم . وعلى من يحب الاقتراب من الصنوبر وتتوق نفسه الى فيء اشجاره وارضه المفروشة ببرده اليابسة ان يخاطر بكثير من الرفاهية التي ألفها . عليه ان [illegible] الاحايين بحياته اي بلحمه ودمه – عليه ان يمشي بين [illegible] والادغال وعلى الشوك والبلان و[illegible] وفوق

الصخور المغطاة بالطحلب النامي في ثقوبها الغار والخنشار . عليه ان يدج دجّ من تحتها تارة ويقبل شوك القرقفان الذي يعترضه ويشم رائحة الطيون الذي تلتصق اوراقه بثيابه . وقد يقع تارة من صخر املس ويزلق طوراً على الارض المفروشة بورق الاشجار البالي . وبينما هو سائر يسمع الحقيقة تخاطبه قائلة : انا الصنوبر ايها الشاب الحالق الحيا الرائع الوجه الرقيق العواطف الراسخ في علم السلوك المواظب على سنن الادب والمعاشرة . فان كنت تريد الاقتراب مني — ان كنت تحب الجلوس تحت اجنحتي الخضراء المبللة بندى الحب فعليك ان تترك وراءك نعومة المجالس وجمال الترف ورفاهة العيش وبذخه . عليك ان تدوس شوك الخرافة وتمشي بين عوسج التقليد وتقطع اودية الاوهام وتعبر سواقي الحب الكاذب وتتوقل في الصخور الشامخة وتسقط تارة في عليق الرؤساء وطوراً في ادغال احكام واحاد الشرائع . واذا سلمت بعد كل ذلك فصعدت في الصخور المنيرة بذاتها المتفردة بعظمتها القائمة على شفير الهاوية من غير ان تشعر بشيء من الخوف والرعدة او ان تشعر بشيء من الريب بنفسك . ومتى وصلت الى تقيم في ظلي سعيداً وترد من المياه بعيداً عنها في آن واحد . وتصبح مثل قمة جبل الشيخ لا ملك فيك لاحد من الناس ولا لاحدى الطوائف والاحزاب . تصبح اذ ذاك مشاعاً للجميع . تبارك من عاش في ظل الحقيقة ! تبارك من ملك نفسه .

حاصرني المطرُ في كهفي الصغير ساعة من الزمن فأخذت اتأمل اثناء ذلك مــا كان داخله من آثار المخلوقات التي سكنته قبلي . فرأيت أنّ الحية كانت تدخله لتغير فيه ثوبهــا . والثعلب ليأكل فرخته والضبع ليفترش فيها مائدته . كيف لا وهــذا ثوب الحية البالي وهنا بعض ريش الدجاجة المسكينة وهناك عظم من عظام الثعلب . وفي السقف والزوايا انسجة العنكبوت وفيهــا عشيرة من البعوض واني اؤكد ان هذه البعوضة الراقدة الآن في هذه الخيام النحيفة آمن على نفسها من قيصر الروس في قصره ولقد يستطيع حزاز الصخور ان يفيدني شيئاً من هذا الباب لو شاء ربك . لقد يستطيع الخنشار النامي على باب المغارة الباسط جناحه المزركش فوق هذه الاوراق البالية ان يقص عليّ قصة غريبة عجيبة . فكم من حادثٍ حدث في جوف هذا الكهف لو كان لجدرانه ان تنطق وتتكلم !

من لي رفيق يشاطرني الآن هذا المأوى الصغير المعتم البارد الجميل في ذاته ! لا انكر ان العزلة جميلة . ولكن — لا بدلي معها من رفيق لأقول له من وقت الى آخر ان العزلة جميلة . فقد تاقت نفسي وانا بالقرب من الطبيعة الى نفس بشرية اخرى تريني بما فيها من القوة والضعف ما خفي من قوتي وضعفي . تأملت وانا في هذه المغارة مــا في الطبيعة من القوى الكامنة ومن الهول الراقد تحت ستار السكينة والجمال . فجرني الفكر الى الهيئــة

الاجتماعية الحاضرة الواقفة على شفر هاوية فتن لم يسبق لها مثيل في التاريخ جرني الفكر الى ستار الكذب والتصنع والاحتيال الذي يسدله ذوي الغايات النفسية على الحقيقه — الى القوى الكامنة في الشعوب المظلومة — الى الهول الراقد تحت ملاءة من الخوف والخمول — الى خير الكامن في الافراد الغيّر على الحقيقة الجريئين في الذب [illegible] شتات الاضطهادات على ذوي الافكار فهم لا يحرمون [illegible] لتجثون اليه [illegible] الطبيعة باليسرى وتعيننا باليمنى [illegible] اليها حينما يشتد غضبها الاعمى . واذا [illegible] الاجتماعية وكشرت عن نابها في زوايا الارض واطرافها نفوس حرة سامية تنعشنا بطيب شذاها . وتجدد فينا حرارة محبتها الحماسة والنشاط

وبعد ان [illegible] الربيع اوزارها اشرقت السماء قد لا فظهر شيء من [illegible] الاغصان وحول نقط الماء [illegible] لا [illegible] من الفضة وحبات من اللؤلؤ [illegible] الى غصن ومن [illegible] وهكذا تفعل بعد الامطار و [illegible] ولذة التأمل الذي توجبه [illegible] بعد ان مثلت دور المنشد [illegible] .

في [illegible] لا [illegible]

النفس المبتهجة الى الشمس ونورها ولا تشتاق الى بهائها وحرارتها في مثل هذا الوقت من السنة تلذ لي الغاب ويبعدني الوادي عن الاوراق والكتب . تلذ لي الغاب وما فيها من السلوى والالهام والراحة . تلذ لي ظلمتها وظلالها . سكينتها وصخورها واشجارها وادغالها . اشواكها وازهارها . نعم ان صوت الغيث الهاطل على الاشجار جميل فهو يضرب على اغصانها واوراقها فيخرج منها انغاماً والحاناً مطربة مدهشة . ولكن السكينة التي تتلو العواصف اجمل في أذن النفس واطرب .

صوت الاوراق الصفراء التي تقع متناثرة الى الارض من ثقل ما عليها من الماء . او صوت نقطة ماء تقع من ورقة خضراء حيّة على ورقة يابسة ميتة . او صوت فأس الحطاب بين اشجار العفص والسنديان . او صوت الاولاد الذين يؤمون الوادي والغابات طالبين الحلازين -- هذا كل ما تسمعه في الغاب بعد العواصف والرياح . وهو جميل لانه قليل في كثير .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب اذ عوى

وصوّت انسان فكدت اطير

صحيح ما يقال من ان الرياح والاعاصير تضر بمصالح الناس ولكن أمن اجل الانسان ومصالحه الزمنية المادية خلق الله كل شيء هكذا يقال في التعاليم الدينية ولكن الطبيعة تقول غير هذا القول . ويظهر لي ان الاعاصير تعوّض اضعافاً على الانسان فالذي

تأخذه من ملكه الخاص تعيده الى ملك الطبيعة والخسارة لا تكون الا نسبية (وهذا ظاهر لكل الذين وصلوا بترقيهم الروحي العقلي الى درجة يتم فيها امتزاج الروح البشرية بروح الطبيعة الشاملة . وهؤلاء الفلاسفة لا يفقدون شيئاً ازلياً ولا يكسبون شيئاً زائلاً . لان الطبيعة بما فيها هي ابداً لهم وهم ايضاً لها على غابر الدهر .)

السير في شوارع المدن الكبرى يذكر الانسان بالانسان واما السير في الوادي او الغاب فيذكر السائر بالخالق العظيم . الاول يدعو الى العمل والثاني الى التفكر والتأمل . في الاول بعض اللذة التي يتبعها الاعياء والقنوط وفي الثاني نوع من اللذة الذي يتبعه النشاط والعزم وحسن الآمال . يمشي المتنزه في شارع من شوارع باريز او نيويرك فيدهشه ازدحام الناس وتنقبض نفسه من الضجيج ويتبلد فكره مما يراه وراء زجاج النوافذ الكبيرة من مصنوعات الانسان ومن التحف والعاديات . ويمشي ابن الطبيعة في الغاب بين الادغال وتحت الاشجار والادواح فتنعشه روائح الصنوبر ويسكره ارج الارض الذكي الممتزج بروائح القوسه والبطم والغار . فيخرج من بيت امه وقد ملئ نشاطاً وعزماً وسروراً وعلى الخصوص اذا كان معها في ساعة تهيجها) يخرج اذ ذاك وهو شاعر انه يستحق ان تعامله الطبيعة معاملة مثيل لها بل معاملة احد اعضائها المتساوين امام الناموس

الشامل الدائم الذي لا يبطل من اجل الاغنياء ولا يلغى من اجل الملوك والامراء .

وهكذا خرجت من الوادي بعد ان قضيت فيه بضع ساعات خرجت بعد ان تصفحت فصلاً طويلاً من كتاب اميرة المنشئين وربة الكتّاب .

* * *

وكلما كنت اعبر طريقاً ضيقة كثيرة الاخطار والمخاوف كان يخطر على بالي هذا السؤال : من هو يا ترى فاتح هذه الطريق القديمة التي تدور حول الصخور وتمتد فوق الوهاد وتختفي بين الادغال فتفضي الى النهر او الساقية ؟ من هو بطل هذا الوادي من هو فاتحها يا ترى ؟ وما ادراك ان الطريق هذه خططتها الثعالب والذئاب . ما ادراك ان فاتحها ليس من بني الانسان . ولكن ما لنا ولها وقد وصلنا الى الكروم وما وراءها من غيوم السكر ونجوم السرور . فتأمل الجفنات بعد ان اعطت الانسان ثمارها في وقتها المعين . أتعرف لماذا اسودت جذوعها ؟ لان الدم قد خرج منها لان عروقها قد جفت فيبست فخارت قواها وسقطت الى الارض عن قسائلها . ولكن اذا كانت الجفنات تمثل لنا الموت للعيون تحت الدكة وحول الجفنة يمثل لنا ازهار الحياة الجديدة لازنبه —

قد لاحظت ان اكثر الازاهير البرّية التي تنبت في هذه الجبال

في اواخر الخريف هي كلها صفراء صغيرة نحيفة والذي يزيدها رونقاً ويزيد محب الطبيعة دهشة هو انها على ماهي عليه من النحافة وضعف البنية لاتنمو ولا تزهر الا في الاماكن الخشنة المخوفة فالزعفران ينبت بين العليق والشوك وتحت الصخور وبين الحجارة والاقحوان الاصفر ينبت في الودائق وعلى الطرق بين دوس المواشي والنغال . وبخور مريم يلوص لوصاً من خلال الدكات وثقوب الصخور فكأنه يطل من نافذة بيته يقول للمتنزه : عليك السلام . والطيون يعيش قنعاً راضياً في كل مكان . والخندقوق البري يتمايل تيهاً بين الشيح والادغال بعيداً عن منجل الفلاح . واما الزعفران فهو اقل الازهار طمعاً واكثرها رقة واتضاعاً . فهو يخرج من تحت ترابه بعد اول سحابة من فصل الشتاء ولا يطلب من الطبيعة كثيراً . لا يطلب منها الا القليل من الماء ليجدد حياته ويعطيها عوضاً عنه بحيرات من نور ازهاره

وكل هذه النباتات الجميلة الحقيرة تنبت وتنمو وتزهر وتذبل دون ان يلمسها بشر — دون ان [illegible] قليل من العالم الخارجي هي تعيش لنفسها وللطبيعة فقط . فلو وقفت امام معلف من المعالف في القرية لرأيت فيه كثيرا من هذه المخلوقات الجميلة الحقيرة . شيء يحزن . ولكن لو كان الفلاح يحب الطبيعة لما كانت تعيش عنده الماشية . واما الطيون فهو اكثر النبات المزهر غرابة في اطواره لانه ينور في منتصف الصيف بعد ان يكون

قد ذوى زهر الوزال ويعود فيزهر ثانية في هـذه الايام — ايام الخريف والموت – اما هو فلا يموت . هو يجدد شبابه فتخضر ثانية اغصانه الدبقة لتكللها الانوار الصفراء . والطيون سمج الهيئة قوي الرائحة لا تكاد تلمسه حتى يلصق بك قسما منه فهو يهبك شيئا من روحه عند المصافحة الاولى . نعم هو حر كريم سره في يده وعلى لسانه . ولكنه غريب باطواره مستقل باحواله مكروه عند الفلاح لكثرته وسماجته وقلة نفعه وهو لا يزهر في الربيع حينما تكون بقية الازهار البرية آخذة مجدها زاهية بجلالها . ولكن بعد ان تزول النعمة عن تلك تبدو على رؤوس اغصانه الدبقة علامة الحياة اللطيفة – حياة الرقة والظرف والجمال نعم حتى الطيون يزهر ولكن دونه وتحسب ناموسه حتى على هذه النبتة السمجة تظهر ... ... صعتها ولو آجلا

ومن الامور التي تستدعي الذكر وتستوقف البصيرة والبصر هو ان القدر يجعل عنايته بهذه المخلوقات الضعيفة بالنسبة الى ما هو محدق بها من الاخطار والمخاوف . وكم من الازاهير البرية تنبت بين دواليب العربات وبين دوس الخيل والماشية ! وقبل ان اختم هذه المقالة اعرف القاري بالاقحوانة الناسكة فقد استوقف نظري ذات يوم قحوانة وحدة بيضاء زاهرة بين حجرين موضوعين في نصف الطريق على شكل الاثافي وعليهما آخر جاء بوضعه سقفا للبيت الاقحوانة تحته زاهرة زاهية راضية

بحالها غافلة عن الاخطار المحدقة بها . تعيش هذه الاقحوانة بعيدة عن اترابها ولكنها ليست كنساك البشر بعيدة عن الناس. فالطبيعة والتقادير بنت لها الصومعة في نصف الطريق بين ارجل المواشي التي تجيء وتروح عن شمال صومعة الاقحوانة الناسكة وعن يمينها دون ان تمسها بشيء . وكم مرة مرت فوقها وبجانبها العربات دون ان تحرك حجراً من حجارة الصومعة او ان تؤذي صاحبتها تباركت الاقدار ! هكذا تترك بنيها . وهكذا تصونهم من الاخطار !



(2) الكتّاب

يقال ان الكتّاب نوعان نوع يكتب ليعيش ونوع يعيش ليكتب . وقد فات من قال هذا القول ان هناك كاتباً آخر يستحق ان يرفع فوق الاثنين الا وهو الكاتب الذي يعيش ويكتب . والفرق بينه وبين كتاب تينك الطبقتين طفيف في الظاهر — هو قائم بحرف العطف الصغير ولكنه في الواقع عظيم وجدير بالاعتبار . ولا بأس من التفصيل وان ادى ذلك الى التطويل . لا حاجة للقول ان من يكتب ليعيش لا يكتب شيئاً يُذكر فيؤثر هو كاتب مأجور يحرك اليراعة كيفما شاء السيد . هو حوذي الادب يعلق على عربة علمه تعريفة الحكومة ويسوق القلم كيفما شاء الراكب والى حيث يشاء . وقد تقرر عند الافرنج مقام هؤلاء المسودين المبيضين فلا يعدون عندهم من طبقة المؤلفين وارباب الادب . واكثرهم ممن ينشئون الجرائد ويراسلونها فيمارسون صناعة الكتابة زمناً طويلاً دون ان يتعدى اسم الواحد منهم ادارة الجريدة المستخدم فيها . واذا تكلم الناس هنالك في الصحافي مثلاً يتكلمون فيه كما يتكلمون في التاجر او الاسكاف او الفلاح او الصراف . فيحصرون الحديث في الارباح والخسارة في عدد المشتركين والمعلنين وقلما يذكرون الكاتب او المدير او المراسل .

وقد ينشأ من هذه الفصيلة الكبيرة فصيلة اخرى ممتازة باسمها الجليل ومعروفة على الاقلّ بين المؤلفين ان لم تكن مكرمة عندهم ومحبوبة الا وهي فصيلة الجهابذة الناقدين . اولئك الذين ينظرون بالكتب الجديدة التي تصدرها المطابع دون انقطاع فينتقدون ويماحكون ويغالطون وهم قلما يقرظون ويمدحون . نعم الناقد كاتب مجهول يقصّر عن التصنيف فيقضي حياته الكتابية في انتقاد التآليف الجديدة . وقلما يشتهر فرد من افراد هذه القبيلة الغازية الضاربة على تخوم الآداب خيامها . وقلما يكون لها قائد او شيخ او امير . فكلهم في الميدان سواء « كل اذا عد الرجال مقدم » ولكن مع كل ما يحدثونه من القرقعة والجلبة ومع ما يجيء في طعنهم الشديد من النقد السديد لا يعدون من طبقة الكتاب والمصنفين . هم ممن يكتبون ليعيشوا . هم ممن يعلقون على باب مكتبهم التعريفة الرسمية .

واما الطبقة الثانية من الكتاب — اولئك الذين يعيشون ليكتبوا — فقد تكبر الفائدة في تآليفهم وتصغر بقدر ما يعيش الواحد منهم قريباً من الحياة البشرية المتحركة والحياة الطبيعية الساكنة . فالذي يعيش في مكتبه ابداً ويؤلف بين الكتب والاوراق والمحابر بعيداً عن حركة الحياة ومظاهرها يصنف ولا شك كثيراً ولكنه لا يعيش حقاً . وقد يسقط في كثرة تآليفه سقطة الكاتب الاول في مقالاته المأجورة . الذكاء شيء نادر

يا صديقي ومتى وهبت منه الطبيعة احد بنيها فبالدرهم والقيراط واكثر المؤلفين المشهورين افرغوا كل ما اتوه من الذكاء بكتاب او كتابين من كتبهم العديدة وما سوى ذلك يعد من طبقة الكتابة التي يكتبها ذوو التعريفة الرسمية .

(عندك من الكتاب الاميركان من يضطر ان يؤلف كل سنة رواية او روايتين حتى يظل اسمه في افواه الشعب يردد وفي انظارهم يتمثل . فلا ينساه اذ ذاك القراء ولا تخسر الشركة في طبع تآليفه . فالكاتب الذي يضطر ان يؤلف على التوالي بلا انقطاع ليظل مذكوراً معروفاً لا يجيء غالباً الا بسقط المتاع واذا كتب شيئاً نفيساً يكون ذلك منه اتفاقاً وكبيضة الديك. ولا تستحسن الا كتاباً واحداً من بين تآليفه كلها التي تعد بالعشرات . وبين مثل هذا المؤلف الذي يعيش ليكتب وذاك الذي يسود المقالات ليعيش شيء من النسبة والقرابة . فكلاهما يكتب ما ينسى بعد القراءة الاولى وكلاهما اسير قلم يمارس الكتابة والتأليف كما يمارس التاجر تجارته والدباغ صناعته والفلاح حراثته). فمن من هؤلاء كلهم يتفرغ مثلاً للذات العقلية والتأملات الروحية او الرياضات الجسدية . من منهم يخرج من دائرة مهنته الضيقة الى حقول الحياة ورياضها ولو مرة في الاسبوع او في الشهر . من منهم يخرج الى الطبيعة ليقرأ في كتابها النفيس الفريد ولو صفحة كل يوم او صفحتين

من يكتب ليعيش اذاً يعيش ولا يكتب ومن يعيش ليكتب يكتب ولا يعيش . واما الثالث فيقسم وقته تقسيماً حكمياً ويفرد منه للطبيعة وللحياة وللادب . الثالث يعيش حياة عقلية وروحية وجسدية معاً في حين يعيش الاثنان الاولان عيشة ناقصة ناشفة الواحد منهما عقلي والثاني مادي والاثنان بعيدان عن العنصر الروحي العلمي الذي يجب ان يسود في كل ماتكتبه اليوم .

الكاتب الثالث – الكاتب الذي يعيش ويكتب ولايصنف تصانيف فكتور هوغو او فلتر ولا يعيش عيشة فرلاين او اديب اسحق . وهو لا يكتب الاّ في ساعة الالهام والوحي . خذ لك مثلا قريباً يشرح رأيي هذا شرحاً جلياً . تعال نقابل ايها الاديب بين فلتر وروسو او بين هوغو وهيني فكم صنف فلتر وكم الف . كم سوّد من المقالات ونظم من القصائد وكتب من الرسائل . وبما انه لم يخرج قط في حياته الخاصة عن الرسميات والتكلف جاءت كتبه في الموضوعات الاجتماعية نقصاً . فلتر الكثير التآليف . لم يختبر العالم مثل روسو والقليل الذي كتبه هذا يوازي الكتب الذي صنفه ذاك . من منا يذكر اليوم من تآليف فلتر التي لا تحصى سوى رسائله وبعض رواياته . واما روسو فاكثر الذي كتبه يقرأ حتى في زماننا الحاضر . ومن لا يقرأ « الاعترافات » او « اميل » او « الميثاق الاجتماعي » اليوم على نحو ما كان يقرأها

ابناء القرن الثامن عشر على عهد الثورة ؟

عاش روسو الفيلسوف عيشة طبيعية بعيداً عن الرسميات والتصنع وسقط في خروجه عن المألوف سقطات عديدة ولم يكتب ما كتبه الا بعد الاختبار والتأثر ولم يؤلف كتبه الشهيرة الا بعد ان قاسى الوان العذاب واضطهد اشد الاضطهاد واما فلتر الخفيف الروح الواسع الاطلاع الطويل الباع الذي بذ زملاءه ذكاء ودهاء فعاش غالباً في مكتبته بين المحابر والاوراق عاش بعيداً عن الشعب كما يعيش الامير او الملك واذا خرج مرة فالى بيوت الاشراف وقصور الملوك . وهكذا ألف ما الفه وفي نفسه من تأثير هذين الوسطين شيء كثير . ومثل هذه المقابلة يصح اطلاقها على هوغو والشاعر الالماني هيني . وكنت اود لو اذكر كتاباً عوضاً من هؤلاء الافرنج فعندنا اليوم من المؤمنين من يصح بين بعضهم مثل هذا التنظير ولكن ماذا يمكنني ان اقول وانا لم ازل اردد كلام النبي الذي قرأته البارحة .

قال نبي الاسلام : « ما اتى الله احداً علماً الا اخذ عليه الميثاق ان لا يكتمه احداً . »

لنقسم الكتّاب قسماً آخر إذاً . نقول ان الكتاب قسمان احدهما يكتب ليرضي الناس والثاني ليرضي نفسه . الاول يكتم علمه حباً بكيسه والثاني يبثه حباً بادبه . فالذي يكتب ليرضي الناس لا يحتاج الى معرفة قرائه وما نشأوا عليه من التهذيب

والاخلاق ولا يهمه ان اختلفت مذاهبهم وتباينت مزاياهم وتضاربت اذواقهم فهو يجاريهم على ما يشاؤون ويخوض عباب البحر جارياً مع الامواج سائراً مع التيار العام . ومعظم ما ينبغي له درسه ينحصر في احوال قرائه المدنية والاجتماعية واذواقهم الفطرية فيكتب ما يلائم ذلك ويبسم ساخراً وهو يسوق بين التهكم والمجون يراعه . هذا اذا كان عالماً خبيثاً . واما اذا كان غراً غبياً فيقول قوله معتقداً ان الحق معه لا مع سواه . ثم يرفع حاجبيه ويصعر خديه ويقول في نفسه معجباً . حقاً ان المرء باصغريه .

اما العالم الحقيقي والكاتب المخلص المستقيم الذي يكتب ليرضي نفسه اولاً فهو يحتاج من المطالعة الى اوسعها ومن الدرس الى اكثره ومن البحث والتنقيب الى ادقها ومن الجرأة الادبية الى اشدها . الاول يتذلل لهذا البك ويتملق لذاك الباشا ويجامل هذا المطران ويطنب في مديح ذاك الامير ويثني على كل ذي سلطة وسؤدد عادلاً كان او ظالماً . جاهلاً او عالماً . صادقاً او خبيثاً . دنيئاً او نزيهاً . والثاني يحافظ على كرامة الادب ليعزز ما عنده من العلم ويبثه دون مراوغة ومحاباة فلا يقال عنه اذ ذاك هو عالم ولكنه جبان فمثل هذا الكاتب يبدي آراءه سخط القراء ام رضوا هو لا يكتم علمه احداً هو لا يبعد الحقيقة عن الناس ولا يبعد الناس عن الحقيقة . الكاتب الاول يمحق باعماله ما اكتسبه من العلوم اذا كان مكتسباً شيئاً ويمسي بعد ذلك كعامة

الناس فيقف امامهم لا ليفيدهم ولا ليساعدهم على تحسين حالهم بل ليسلك مسلكهم في كل الامور ويقتفي اثرهم في كل شيء والكاتب الثاني يدرس احوال الامة متأملا ويبحث في خلاف الناس اجتماعية فيفيد ذاتك اذا كتب ويصدق اذا انتقد . الاول مسؤول عما يكتبه لجيبه فقط والثاني مسؤول لضميره . والعالم الذي يكتم ما يعلمه خشية ان تكدر القراء اقواله هو كالطبيب الذي يحجم عن العملية خوفاً من ان يؤلم المريض . او هو كالقاضي الذي لا يرشد المذنب ويوبخه خشية ان يكدر خاطره الكريم فما اجمل ما روى نبي الاسلام اذاً :

« ما اتى الله احداً علماً الا اخذ عليه الميثاق ان لا يكتمه احداً »

وما اقبح واسخف مايقول واتك لمحافظون المنقادون الى الذوق العام الفاسد . فاذا قرؤوا مقالة سديدة فيها شيء من الاراء الجديدة يمتعضون ويشمخون ويزدرون صاحبها قائلين : ان هذا لايوافق القوم ولا يلائم اذوقهم ومشاربهم . فلهؤلاء ومثلهم اقول كيف يتسنى لكم اصلاح الذوق العام الفاسد اذ كنتم في كتاباتكم لاتقولون ما يكدر ولا تبدون رأياً جارحاً . لا تنتقدون انتقاداً صحيحاً اذا كنتم تنوون ان تجعلوا الذوق العام قياساً عاماً لكل ماتكتبونه فخير لكم ان تستعفوا وتتركوا للشعب القول . فهو يزيدكم في اصول المجاملة علماً ويثبت فيكم ما الفتموه من حب الملاطفة ومراعاة الخواطر

الكاتب الحر هو العالم الحقيقي الذي يضع امام الناس نتائج علمه وثمار بحثه ودروسه فيفيد الامة بجميع مظاهرها مع محافظته على كرامة العلم وحرمة الادب. وهو يقول قوله وان كان ذلك معاكساً لميل العامة ومخالفاً لاذواق الافراد واهواء ذوي السيادة من كتب المستقبل لايجازى على عمله في الحاضر ومن كتب للحاضر فلا يبقى له ذكر في المستقبل. ويحذر بما كلاهما التمثيل والعمل بقول من قال.

جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية وممن يظهر حقيقة مايعلمه بما يعمله

واخيراً وبكلمة افصح اذا لم تكن اوضح. الكاتب الذى يكتب ابتغاء مرضاة القوم والكاتب الذي يكتب ابتغاء مرضاة الحقيقة — لاتقاطعني فقد انتهيت — اتعرف ما الفرق بين الاثنين الاول هو اشبه من الملح والثاني هو النواة. فكل الاول هنيئاً مريئاً ولكن اعلم رعاك الله بان النواة التى تنبذها خارجاً تخرق الارض وتتوارى تحت التراب الى حين ثم يسوق الله اليها سحابا فتسيل ماء فيحييها بعد موتها فتنزغ وتنمو ويكبر ظلها ويأكل من ثمارها اعقابك واحفادك وبنوك.

١٤/١٢ ٦٠



انوار الافكار

هو الفكر مشعشعاً في الفضاء منيراً لطرق السيارات وحبك النجوم. هو الفكر رافعاً هذه الكرة الصغيرة الى مركز سام بين العوالم الكثيرة العظيمة التي ترى ولا ترى. نقطة صغيرة في الفضاء غير المتناهي الذي تدور فيه ملايين من الكواكب والوف من السيارات ومئات من الاقمار والشموس — نقطة صغيرة في هذا الفضاء القريب البعيد — هذا هو عالمنا — هذه ارضنا. ومع ذلك ترى الانسان يشمخ ويتكبر ويرفع رأسه فوق رؤوس آلهة الجوزاء. واذا كان لابد من هذ فلأرباب الافكار الحق الاول على ما اظن. نعم ان كل فكر ينحبس عن هذه الكرة الصغيرة هو عالم كبير في عالم صغير. التفكير حياة العوالم كما هو حياة الانسانية. التفكير صلاة الفيلسوف. التفكير يولد الحركة المفيدة ويجلو العقل ويطهر النفس. وليس التفكير بالامر السهل. فصيغة الافكار اصعب جدا من صيغة الجواهر. والشعراء خاصة يعرفون ذلك ويكابدونه

وبعد فقل لي كم الناس يعجزون عن الاجتهاد ... فيم يفكرون وكم من الناس لا يفكرون ... حياتهم اليومية فضلاً عن ... وقد يفكرون في ... عن غير ... ان قوة الفكر ... من قوة صيعة ...

والماديون ٠ فاذا قلتم لي لا تقدر ان تسكن بين عناصر الطبيعة المهاجمة وانت مقاوم لها اقول لكم ان مملكة افكاري واسعة ومملكة احلامي اوسع . اعيش هنالك مطمئن البال بعيداً عن جراثيم الاطباء وعن الجبال الباردة التي يعتصم فيها العلماء والذي يسرني ويسر كل شاعر حقيقي هو هذا : ليس في مملكتي كلها آلة واحدة للتشريح ٠ تعالوا اذاً نفكر كما نشاء ونعيش كما نفكر تعالوا نحلم احلاماً جميلة ونحب كما نحلم حباً جميلاً ٠ قد سئمت طرق العلماء التحديدية التي تحصر حياة الانسان بين كهف مظلم وقبر بارد ٠ فمن الكهف الى القبر على طريق التمدين الحديث ما اجمل هذه السياحة ولكنها لحسن الحظ قصيرة واما السياحة الفكرية الروحية التي يمر بها السائح على جزائر الحب وغيرها من الاماكن الجميلة والتي يعجز « هذا الفقير الى ربه » عن وصفها فتلك سياحة طويلة اولها عالم الازل وآخرها عالم الخلود وبذلك اقول ان المرء يستطيع بقوة الفكر ان ينتصر على القوى الطبيعية ويجد هنالك قوة فوق قوة الفكر الا وهي قوة الحب ٠ فالحب ... ولكن تلك قصة اخرى تقصها العيون النجلاء في بساتين الجمال ويهمسها النسيم في آذان الشفيق تحت سماء المنى والامال . اذا اجلت في حالة الناس فكراً فيكفي ذلك الفكر ٠ املا بندقية العزم يشتغل البعض لنفسه ٠ تفكر تلق نتائج فكرك آجلا او عاجلا فهي تظهر رغم ما يعترضها

من الصعوبات . ولربما ظهرت في عمل صغير من اعمالك . او في كلمة تفوه بها على الفور في الساعة التي تأبى النفس فيها التحجب او في مساعدة تبديها لبعض الناس او في خطوة تخطوها نحو الغرب او في لفتة تتلفتها نحو الشرق . او في مصافحة تصافحها باغياً او بغياً . اقول لكم تفكروا فالحركة التي تبدو في الكريات الدماغية حسب زعم الماديين انما هي مثل كل حركة تبدو في الكون سواء في اقصى السيارات او في احط المخلوقات الصغيرة . الشرارة التي تقدحها النفس تتطاير منك الى سواك ولربما انارت البعيد اكثر مما تنير القريب لربما كانت اجلى لاولئك الذين يرونك من علوهم باحتقار منها لاولئك الذين ينظرون اليك من العمق بغاية الوقار .

كنت امشي ذات ليلة على الطريق في الجبل فرأيت دخاناً يتصاعد من خلال ورق التوت بالقرب من كنيسة صغيرة فطرقت تلك الناحية فوقع نظري على امرأة تخبز على «صاجها» وفتاة توقد تحت « الصاج » اعواداً من التين واغصاناً من العفص . فسألت نفسي اذ ذاك : هل النار التي تضرمها هذه الفتاة محدودة القوة هل الجمر الذي يتأجج تحت هذه الصفحة الحديدية منفصل عن القوة الشاملة المتفرعة في كل اجزاء المادة . يا لك من احمق غبي أهذه اسئلة يسألها العاقل ؟ أيوجد في الكون قوة منفصلة كل الانفصال عن قوة اخرى ؟ نعم ان المادة تتجزأ ولكن حركة فيها

القوة الكامنة فترتج وتتموج وتتأجج وتعود الى الفروع التي تنفصل عنها وتتصل بها من البدء

النار التي تضرمها الفتاة تحت « الصاج » — اتعرف من أين مسيرها والى أين . ما الاشجار والنبات الا الكربون الذي يفصله نور الشمس عن الاوكسجين الموجود في الهواء . فقوة النار من قوة الشمس وقوة الشمس من النيازك التي تتساقط ابداً عليها . والنيازك ؟ تبارك الباري ! — فربما مرت في طريقها على اورانوس او على زحل او على سيروس ولربما كانت منفصلة عن سيارة تبعد عن سيروس بُعد سيروس عن الشمس . نعم ان الشعلة التي نراها الآن بعيدة العهد بها الجاهل لعلها أضرمت منذ الوف من السنين في كوكب يبعد عن شمسنا ملايين من الاميال . اضرمت هذه القوة النارية لتولد قوات اخرى . اضرمت لغرض سام لا ليبدد نورها في الفضاء ويتلبد دخانها على افريز البيوت فقط . اضرمت ليتم بين جوهرها والجوهر الفرد عقد النكاح لتتولد عن ذلك قوة جديدة كامنة في الخبز والخبز في معدة الشاعر يولد قوة اخرى تنفصل عن القوة النارية وتسري في الدم الى الدماغ وتولد هناك حركة افكار بينها وبين لهيب النار التي نراها الآن تشابه عجيب من سيروس عن طريق الشمس الى الارض — هذه احدى طرف النار ومن الارض الى سيروس عن طريق الشمس — هذه احدى طرق الافكار . هذه رحلة من رحلات النفس البشرية . فلا

وقوف ولا انقطاع ولا نهاية . يا لها من دورة عظيمة غريبة سرية الهية تجمع بين « من اين » و « الى اين » .

نعم انا على يقين ان الفكر لا يموت والنفس لا تفنى . والبزرة التي تقع من يد الزارع على الصخر تساعدني ان اقدم ولو برهانا ضعيفاً على اعتقادي هذا . فهل تظن ايها القارئ ان البزرة هذه تموت . زرها في العام المقبل وانظر كيف خدمتها الرياح وكيف انعشها الشتاء وكيف عنيت بها الاعاصير . فقد جرفت لها التراب من اعلى الجبال واستدرت لها الماء من اليوم . وانظر الان كيف ترفع رأسها من شق الصخر لتشكر للشمس كرمها وللغيم فضله .



٣ - مناهج الحياة

اليس في وسع المرء ان يعيش في هذا العالم دون أن تُطبع روحه بطابع الملة وتصبغ بصبغة الطائفة الا يقدر ان يكتسب ثقة اخوانه البشر دون ان يعلن تشيعه ويفاخر بتعصبه ويكابر بغيرته الدينية مثلاً او السياسيه . الا يقدر ان يحب فئة من الناس دون ان يبغض سواها . الا يقدر ان يكون شريف الروح نزيهها عفيف النفس نقيها دون ان يحفر على صفحات قلبه او على جبينه باحرف كبيرة : « انا يهودي » او « انا مسلم » او « انا مسيحي » اليس في وسعه ان يكون سعيداً محباً لامرأته واولاده واهله وبني جنسه دون ان يعلق في ذيل ردائه اجراس الشيعة وجلاجل الملة كيما تبشر بقدومه حيثما توجه وتبدد بقرقعتها كلما تحرك ذرات السكينة والسلام؟ اليس له ان يحب ربه دون ان يبغض اخاه في الانسانيه . الا يستطيع ان يرفأ ثوبه دون ان يمزق ثوب جاره . اليس في مستطاعه ان يصلي دون ان يسب ويلعن ويتمنى لمن لا يصلي مثله لاعج [illegible] . هل تقوم محبة الله بغير محبة الانسان . [illegible] الابوة الالهية من لا يساعد على [illegible] الارض - كم مرة رددت نفسي هذه الاسئلة . [illegible] متأملة وهي واقفة في طريق الحياة الواسعة . ومن ورائها الماضي وجدرانه وآثاره وغباره

ومن امامها تمتد شعب ضيقة عديدة لطريق الحياة الاصلية الواحدة شعب تحير المسافر وتزعجه وتدهش المتبصر وتوقفه . فها قد وصلت مع عقلي وروحي الى حيث يصعب الحكم في الامر . أنظل سائرين في طريق الحياة الرحبة التي لا يتخذها الا العدد القليل من البشر او ندخل احدى الشعب الممتدة امامنا لنكمل سياحة حياتنا الدنيا ؟ واذا عدلنا عن طريق الحياة الاصلية اي شعبة نأخذ اي شعبة اسهل واوسع واجمل . اي شعبة اقصر واقرب الى الدار التي نقصدها ؟ —

واذا نظرنا حولنا نرى على كل رتاج من الشعب المختلفة حراساً وادلاء . هنا يصيح قائلاً : طريقي طريق الخلاص . وذاك يصرخ منادياً : الي الي ان طريقي سهلة رحبة . شعب عديدة وحراس وادلاء كثيرون . كل يمجد طريقه ويسهلها في وجهنا كل يدعي العصمة ويشنع بالادلاء الآخرين وبطرقهم . فنقف حائرين ناصتين ونسمع الضوضاء مضطربين فهذا يقول ان طريق جاري مسدودة — وذاك يقول ان طريق ذاك الدليل وعرة كثيرة المخاطر — ان درب هذا الحارس سديدة المتاعب كثيرة العثرات والاحافير والهوات — ان طريق ذاك الدليل الشرقية تؤدي بك الى هاوية مظلمة — ان طريق هذا الغربية تفضي بك الى واد مرعب مخوف — طريقي طريق الخلاص والراحة — طريقي توصلك الى جنة السماء — طريقي انا رحبة وطريق سواي ضيقة .

طريقك -- طريقي — طريقه — فيا ايها الاله الحليم العظيم سكّت هؤلاء الحراس والادلاء . أطف بروحك الطاهرة الهادئة هذه الجلبة والضوضاء لكيما نفكر قليلاً ونتبصر . اي منهم يا رب مصيب واي طريق اقرب اليك ؟

وبينما هم في فوضى الكلام وانا غائص في بحر مضطرب من الاحلام وصل جمهور من المسافرين فاتخذ كل منهم طريقاً من الطرق العديدة دون سؤال وتردد .

من منهم اتبع وايا منهم ارافق . كل منهم عرف طريقه فسار فيها اما انا فترددت وسألت وبحثت وقابلت فوجدت ان طريق الحياة الاصلية واسعة منيرة رحبة جميلة وشعبها العديدة ضيقة وعرة مخوفة مظلمة . فحدت عنها كلها غير مكترث لتهديد الادلاء ووعيد الحراس وتنديد المسافرين وظللت سائرًا في الطريق التي أوجدتني بها العناية الربانية من البدء . فلا يعترض احد مسيري ولا احتاج فيها الى حارس يحرسني او قائد يقودني او دليل يدلني . هي طريق تهديني فيها عين الله التي تنير العالم وترافقني روحه التي تزيل من فؤادي الخوف والرعب ومن الطبيعة حولي الهول والاخطار . هي طريق لا لصوص فيها فيسلبوك حريتك ولا ادلاء فيضغطوا على ارادتك ولا حراس فيفسدوا استقلالك ويتحكموا فيك .

اي احسن ان يبقي المرء عقله ونفسه مطلقين الحرية والارادة

او يقيدها بقيود الملل والشيع والطوائف ويشوهها بصبغة التحزب الاعمى ؟ اي احسن ان تبقى هذه النفسُ ذخيرة لك او ان تخاطر بها على طريق من الطرق العديدة التي يجبُ ان تسير فيها صامتاً مطيعاً . العاقل لا يخاطر باستقلاله . الحر لا يتاجر بروحه . الحكيم لا يُرْهِنُ عقله لشيعة ما ولا يتقيد بسلاسل التقليد .

لا يا صديقي . ليست هذه النفس قطعة ارض او سلعة لترهنها او تبيعها . ليس هذا العقل برميلاً من التفاح تتاجر به . سر في طريق الحياة الاصلية الرحبة واترك ان استطعت الشعب المتعددة لادلائها . انزع عنك العلامات الصناعية . ارفع عن رأسك الاعلانات الطائفية . امح عن صفحات قلبك ماخطه اجدادك من كلام الغيرة والتعصب . نظف يا اخي لوح النفس نظفه جيداً . وكن انت الكاتب عليه لا سواك وانقش عليه هذه الكلمات الجميلة العذبة: الحرية . الحقيقة . المحبة . الاستقلال كن انساناً صرفاً . كن للانسانية على الاطلاق . واذا كنت ممن يحبون العلامات فكن كالحرف في النحو "اي" فلتكن علامتك عدم العلامة . وقد قال احمد الشدياق

« اذا واظبت على حب الحق وفعل الخير فلا تخشَ شر احد من الناس وما عليك اذا تجنى الناس عليك وانت بريء عند الله »

وان كنت ممن لا يحبون الشدياق ولا يحفلون بقوله — ان

كنت توثر عليه قول الرسل الابرار فاسمع كلام يعقوب :

« ان كان لكم غيرة حرة وتحزب في قلوبكم فلا تفتخروا وتكذبوا على الحق . ليست هذه الحكمة نازلة من فوق بل هي ارضية نفسانية شيطانية لانه حيث الغيرة والتحزب هنالك التشويش وكل امر ردى »

(يعقوب ٣ : ١٥ و ١٦ و١٧)

بشر يعقوب الرسول بالتساهل وادرك مثل عالم اليوم ما للتحزب من النتائج الوخيمة والاضرار الجسيمة . فالتساهل واجب فيما لا يعد جريمة . هو روح العصر وكنز من كنوز التمدن القليلة . وكل عاقل واسع الفكر يشمئز هذه الايام من كثرة الجزم والغيرة . فهو لا يجزم قبل ان يبحث ويقابل ولا يتشيع قبل ان يتفهم كل اوجه الجدل المناقضة لمبدأه . واذا اعتقد بعد طويل البحث فاعتقاده لايضمن الاحتقار لاعتقادات الغير . الاطلاق ذميم والجزم دون استدراك جريمة . انا لا اخشى ان انتحل مثلا مبادئ احزاب متناقضة ولا اتردد . وذاك لانني ارى في كل التعاليم والعقائد شيئاً من الحقيقة وكثيراً من الخرافات . لماذا نشتري اذاً دون انتقاء واختبار ؟ انقبل على انفسنا ان يغشنا الجوهري بحلية ذات طلاء وبهرج ام من العدل ان نتاجر ببرميل تفاح نصفه فاسد ونصفه صحيح فنوهم الناس ان ما سوى التفاح من الثمار سام قتال ؟

اعطني ماهو صحيح من التفاح والاجاص والدرّاق والرمان وخل لك الفاسد منها. جئني بما هو صحيح من المبادئ فاقبله واحافظ عليه ولكن لا تأتني بمذق ابن نصفه ماء وانت تقول هذا من نهر الجنة التي تفيض لبناً وعسلاً فاشربه ولا تشرب سواه. لا تسقني سائلاً مصبوغاً وانت تقول لي هو الخمر. لا تجئني بماء عكر وانت تقول لي هذا مقدس هذا من نهر الاردن. فتبارك وبارك اهلك واصحابك واياك ان تشرب من بئر زمزم او من نهر الغنج فتموت ملعوناً.

فياسقاة العالم! ان خمركم ماء مصبوغ. ان ماءكم عكر يلزمه تقطير. ان فيه كثيراً من الحشرات فيلزمه فحصاً مدققاً. وعلى من يفهمون ويميزون ان يصفّوه ويطهروه قبل الشرب. العقل هو المصفاة التي تقيها من جراثيم الكذب والغش والتمويه. الاعتقاد لازم للبشر ولكنه يضر ان لم يقرن بالتساهل. فكما انني اريد الغير ان يحترم اعتقادي يجب عليّ احترام اعتقادات الغير. واذا احتقرت عقيدة ما دون سبب واجب تحتقر ولا شك عقيدتي وتمتهن. التساهل المتبادل اذاً هو الدواء الشامل لكل هذه الافات الاجتماعية والدينية. اي ان وصفتي لداء التعصب هي هذه السلبية: لا تعارض الانسان الذي يمزج لبنه بالماء لانك انت تتاجر ايضاً بنوع من الماء المصبوغ تدعوه خمراً. فغض النظر عنه ان كنت تريد المحافظة على مصلحتك القائمة بالغش

وهو يغض النظر عنك . ولكن ياما احيلى البعد عن هذا الحمأر وذاك اللبّان معاً . ياما احيلى التجارة التي يكون الصدق فيها العنصر الاكيد . »

قال الشاعر الالماني غرثى « ان واجبنا الرئيسي في حياتنا الدنيا هو ان ننظر الى كل شيء بتعقل وتدقيق دون تحزب ادبي » فالتحزب كما قال يعقوب وبالاخص التحزب الديني لا يولد الا التشوش والاضطراب وكل امر رديء . واحسن من قول يعقوب الرسول وقول الشاعر الالماني وقول الشدياق وقول هذا الفقير ما قال الشاعر العربي :

ـ وقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه دانِ
واصبح قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان وديراً لرهبان
فمسجد اوثان وكعبة طائف
والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب كيف توجهت
ركائبه فالحب ديني وايماني



في الصلاة

كثيرون من المتدينين لا يصومون ولا يصلون وكثيرون من اولي الالباب الموصومون بوصمة الكفر يغسلون ادران قلوبهم ببركات الصلوات . وينيرون بصائرهم بانوار التأمل والقربان من اجل هذا لايسوغ لنا ان نقول اذاً ان كل من يصلون اتقياء وكل من لايصلون كفرة جهلاء . خذ لك مثلاً جاء في تاريخ الثورة الافرنسية الذي الفه كارليل ان الاب تيراي كان يختلف الى الكنيسة ليقدس كل يوم وان تُرغت وزير المالية في عهد لويس السادس عشر لم يكن يدخل قط بيت الله ولكن تيراي الكاهن كان فاسقاً محتالاً منافقاً بل كان لصاً بمعنى الكلمة وكان تُرغت رجلاً فاضلا صالحاً وفيلسوفاً نزيهاً عفيفاً . فلا الاختلاف الى الكنيسة اصلح الاول ولا أفسد الابتعادُ عنها الثاني ما نفعت كثرة الصلاة المنافق المحتال ولا ضرت قلتها او عدمها بالصالح الامين

اما من يتخذون لانفسهم في هذه الايام ثوباً قشيباً من الالحاد مجاراة للزي وحباً بالتيه والغي ويترفعون عن الصلاة ليثق المتثقفون بتبلغ حكمتهم وسعة علمهم وسداد ارائهم وحسن ادبهم فاقول لهم اقرأوا تأملات بسكال او خواطر مرقس أريليوس او فلسفة إبكتتوس او اعترافات القديس اوغسطينوس

فتصلوا اثناء ذلك وانتم لاتدرون انكم تصلون

وما الصلاة في ارفع درجاتها وانقى مظاهرها الا تأملات روحية ترفع الخاطيء (وليس فينا والحمد لله من يستطيع ان يرجم تلك الامرأة) الى سما المحبة والسكينة والسلام كانت الصلاة في الاصل نوعاً من التأمل الروحي. فالبربري الذي ينظر الى الشمس التي يعبدها يهتف قائلا سبحانك ما اجمل نورك وما ابهاه ثم يتضرع اليها مستجيراً مستغيثاً . ففي الاول تأخذه الدهشة و الابتهال وفي الثاني تنبه المآرب الدنيوية جنانه فيتحرك بالتضرع لسانه . فالصلاة في ابسط حالاتها اذاً هي عبارة عن اعجاب الانسان المحدود بذلك الكيان الالهي غير المحدود . ولكن عشاق النظام والتنسيق ورسل التأليف والتأسيس والسيادة — اولئك الذين يرفعون التدين وطرقه على الدين الحقيقي وتعاليمه الاصلية . جعلوا الصلاة وسيلة روحية للتوصل الى شيء مادي دنيوي . وقد اكثروا منها حتى جعلوها مبتذلة بل قد حولوها الى سبح وصور وتمائم وايقونات يتاجرون بها ويوجبون على العبّاد ابتياعها . فاصبحت ممقوتة من سواد المتثقفين المستنيرين ومهملة من كثير من المتدينين الذين يذهبون الى المعابد لمجرد العادة . والمثل يقول الصلاة عادة والصوم جلادة .

« صلوا كثيراً وتضرعوا الى القديسين والاولياء فيمنحوكم البركة ويدروا عليكم الخيرات . » هذا هو تعليم ارباب الطقوس

ومشايخ الطرق . واما تعليمنا الذي نقدمه مع اعتبار شعائر اخواننا المتمذهبين بالمذاهب المختلفة فهو هذا : صلوا قليلاً بتأمل وتبحر فتنفتح عين النفس فيكم وتتأكدوا اذ ذاك صغركم وعدم اهميتكم . فما هو الفرق بين هذا التعليم الذي يجعل الصلاة واسطة الى غاية دنيوية والتعليم الذي يجعلها الواسطة والنتيجة معاً

ان الفضيلة لجزاء نفسها . والتأملات الروحية هي بذاتها ثواب كاف للمتأمل . واما لذتها فلا تظهر لكل انسان . فالتاجر الذي لا يتفرغ للاكل مثلاً لا يقدر ان يتأمل ويتفكر . واذا صلى مساء وصباحاً فتلك عادة تستعبده فيخدمها على عماية دون ان يدرك اسبابها ونتائجها . وعندي ان البومة التي تنعق في الليل على غصن يابس لخير من المرء الذي يردد الصلوات كالببغاء ويبتاع القداديس من ذاك المحترم مثلما يبتاع الزيت والسمن من البقال

من يضرع الى القديسين لينصروه على اعدائه ويأخذوا بيده وينقذوه من نار الجحيم يحتقر النفس ويكفر بالخالق . الصلاة واسطة يعرف بها المخلوق خالقه وليست نقوداً يرشي بها الانسان ربه .

يوم كانت اسبانيا تحارب الولايات المتحدة وقف قسس البرتسطان على منابرهم يتضرعون الى الرب ان ينصر اعلامهم ويثبت اقدامهم ويعلي على اعدائهم حسامهم . وقفوا على منابرهم ورفعوا نحو السماء ايديهم قائلين : ربنا احق اعداء العدل محقاً .

ربنا انصر جنود الحق والحريـة . ووقف الآباء الكاثوليك في كنائس اسبانيا يتوسلون الى ذات الاله بلسان الخشوع مبتهلين قائلين : يا رب انصر كنيستك وعزز شعبك او شيئاً من هـذا . فهل هذه هي الغاية يا ترى من الصلاة والقنوت والعبادة وماذا يقول ذاك الجالس على عرشه عز وجل في ابنائه هؤلاء الصغار ؟ ماذا يقول لدن ترفع اليه الجنود المسيحية صلاتها الربانية في ساحة الحرب قبل مباشرة القتال . فهل يتأمل الجندي معنى هـذه الصلاة الجميلة . هل يفكر بما ينوي عمله بعـد ان ينتهي من « نجنا من الشرير امين » ؟ مثّل لعينك جندياً روسياً يتلو الصلاة الربانية قبل ان يمتشق حسامه على الياباني اسمعه ايها القارئ — اسمعه يقول —

« ابانا الذي في السموات » وكيف تدعوا الرب ابانا ايهـا الشقي على حين انت آتٍ لتقتل اخاك ؟

« يتقدس اسمك » وكيف يتقدس اسم الله عز ذكره . واولاده آخذون بسفك دماء بعضهم بعضاً .

« يأتي ملكوتك » هل تطلب ملكوته في حين تحاول تأسيس ملكوت دنيوي استبدادي مشيّد على جثث العباد وملطخاً بدمائهم ؟

« لتكن معنا مشيئتك كما في السما كذلـك على الارض » ان في مشيئته السماويـة المحبة والسلام وانت الآن في ساحة

الحرب تمتشق الحسام على اخيك

« أعطنا خبزنا كفاف يومنا » باي قحة تطلب من ابيك السماوي خبزك بينا حصانك يدوس تحت قدميه الزرع الذي تفضل ان تراه ناراً من ان تراه خبزاً .

« اغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن اساء الينا » كيف تتلفظ بهذه العبارة وانت الآن تحارب اخوانك حباً بمن كبّر عليك الامر وعظمه . فاذا كان الياباني اساء اليك او الى حكومتك لماذا لا تغفر له اذاً . لماذا لا تنسى في الاقل او تتناسى اساءته .

« لا تدخلنا في التجارب » وهل انت تخاف من التجارب التي تخوض عبابها الآن أي محنة اشد من هذه التي رميت نفسك فيها .

« نجنا من الشرير امين » انت ايها المجرم تمثال الشر اليوم فكيف تطلب من ربك ان ينجيك من الشرير ؟

هذه هي الصلاة الربانية التي يتلوها الجندي المسيحي في ساحة القتال . واليك الآن صلاة اخرى ترفعها النفس البشرية المحررة النفس الحائرة القلقة الى ذات الجلال . فقابل بين الاثنين وحكّم العقل في كل حال

ابانا الذي في السموات كن معي في الحياة وفي الممات . واذا زدتني قوة فزدني يا رب تواضعاً . واذا زدتني علماً فزدني حلماً . لا تمت فيّ فضيلة لتحيي فيّ اخرى . انت يارب خلقتني لاعيش حراً

كالطير . خلقتني لاعيش اولاً لنفسي وثانياً لاخي في الانسانية ولم تطلب من ابنائك ان يقدموا للعظيم منهم ضحية بشرية . انت منحتني عقلاً لافكر فاذا فكّرت قليلاً فلا تلعني . خذني بحلمك الواسع يا رب واذا صرخت من سويداء الفؤاد طالباً منك الرحمة لعبادك في ارضك فاستجب يا رب طلبتي .

يقول لي اللاهوتي انك تقدس اسمك حاضر ناظر في كل مكان ويقول لي الفكر الذي هو قسم صغير من الروح الازلية التي اشتقت منك إن الامراض والاعاصير والعواصف والزوابع والطوفان والحريق والحروب لا تحدث وانت بجانبها تتفرج عليها فاي هو اصدق يا رب ؟ هل انت في الصين حيث المجاعة تحمل الاباء على بيع ابنائهم بشيء زهيد من القوت . هل انت على مقربة من اولئك الذين يموتون جوعاً ؟ هل انت في بلاد الروس حيث ابناؤك المسيحيون يذبحون المئات من شعبك الخاص ؟ هل انت في قلب الاسقف الذي مر في عربته بين القتلة الاشرار وباركهم باسمك ؟ هل انت في ساحات القتال المصبوغة بدماء الرجال ؟ هل انت في ولايات اميركا الوسطى حيث العواصف والزوابع تكتسح البلاد فتدمر المساكن وتفني الالوف من العباد ؟ هل انت في الحريق الهائل الذي يبتلع لهيبه الامصار ويتركها وراءه ساحة مخيفة مرهبة فيها من الجثث والاشلاء المحترقة والاشجار المفحمة والابنية المتهدمة ما يقشعر له البدن وتنقبض منه

النفس — ما يجمد منه الدم في العروق ؟ هل انت في الفيلبين حيث الاعاصير تبتلع المراكب والبوارج وتمتد بامواجها الى السواحل والقرى فتغرقها بلمحة عين ؟ هل انت في المستشفيات حيث الالوف من بنيك تتألم وتتعذب وتئن وتتأوه ؟ هل انت في جراثيم السل والحمى والهواء الاصفر والسرطان ؟ هل انت في مساكن الفقراء المزدحمة في المدن حيث يموت المئات من عبادك من قلة الهواء والنور ؟ رب هل انت في كل مكان موجود وهل انت ناظر كل شيء ؟ امنحني شيئاً من النور لاجمع بين الطرفين . هبني شيئاً من القوة لاوفق بين الضدين . نقطة من بحر علمك يا رب لانجو بها من شر اولئك الذين يتاجرون بالآخرة . اولئك الذين يمشون في الارض فساداً . نعم قد فككت اغلال النفس وكسرت قيود العقل ولكنني على الحق المبين . فبدد امامي غيوم الحيرة وارسل عليّ نور اليقين . وان كنت قد اخطأت في اسئلتي . ان كنت قد كفرت في صلاتي فالغفران لمن يتوب وانا اول التائبين



جهل الانسان لحكمة الخالق

في المثل الانكليزي « الجهل سعادة » ولكن الكتاب والادباء لا يكفون عن التنديد بالجهل والتقبيح بالجهلاء . ولو كان فيما يكتبونه شيء من العلم والذكاء او شيء من دلائل البحث والعناء لاغتفرت لهم القساوة والعماية ولكان لاقاويلهم عند الناس شيء من القبول . ولكنهم يكرهون الجهل ويحبون انفسهم وهم عن التناقض غافلون . اولئك الادباء يحتقرون الجهلة الاغبياء بقدر ما عندهم من التصاف والكبرياء . وهم اذا ذكر الحجى والادب يفاخرون وان قيل في حضرتهم فلان عالم يرفعون الحاجب وبشعرات انوفهم يشولون .

نعم ان الجهل في كثير من الامور سعادة . وما تنديد الادباء وتعنيفهم الامن قبيل العادة او هو ضرب من ضروب البلادة . كيف لا وقد اعتاد اكثر كتابنا اتهام الجهل بكل الرذائل والشرور . حتى لقد ينسبون كل جديد من القول الى الغرور وكل خروج عن المألوف الى التمرد والفجور . لنرفق بجهل الانسان ولا سيما اذا كان من نوع الجهل الذى يولده العرفان . فلهذا الجهل حسنات لاينكرها الا الجهلاء والادباء الادعياء ولا يقدر حسناته الا الذين سلكو طريق المعرفة فادركوا في المقابلة والمقارنة ما لا يدرك في سواها .

هذه اراء دونتها بعد ان قرأت بعض ردود القراء والادباء على ما نشرته تحت عنون الصلاة . فجاء في اعتراضاتهم العديدة ما لا تعبأ به الافكار الجديدة . وقد قالوا ان البحث في نظام الكون جهل وحماقة ففاقوا بتطرفهم ما رموني به من التطرف والالحاد . ولا اقول كلمة في شتائمهم العديدة واهاجيهم البليدة . لان ما هو خالٍ من الفكر والعلم والذكاء لا يستحق التفاتي . وما الفرق بيني وبينهم الا اني من الذين لا يدرون ويدرون انهم لا يدرون وهم ممن لا يدرون ولا يدرون انهم لا يدرون .

ان مصائب الدهر لاكثر من نبات الارض . فهل نحن في احسن عالم من عوالم الله ؟ اذا قلنا نعم فماذا يصير بالاشقياء والبوءساء . بابناء الغم والحزن والبلاء . بورثة الفقر والامراض والاسقام . بالذين يعيشون تحت سقف العذاب وبين جدران الالم من عام الى عام . ماذا يصير ببني المصائب والنكبات وبالملايين من عباد الله الذين يعيشون تحت رحمة فراعنة المغرب .

واذا قلنا لا فلِمَ لا نخلق ونعيش من البدء في العالم الذي هو احسن من عالمنا ! هل تتراءى الحكمة الالهية على ماجريات هذا الكون وتدبرها . . . لانكاد نقول نعم قبل ان تتراكم علينا اسئلة جمة تطرحها نفس آسفة على عقل مضطرب حائر . اقول نعم معك ايها القارئ المتدين التقي ولكن ما هي الحكمة في تكوين جراثيم السل والسرطان والطاعون والهواء الاصفر . ما

هي الحكمة في جعل هـذه الجراثيم سريعة الانتشار ؟ ما هي الحكمة في جعلها قابلة الوراثة فتنتقل من الاباء الى البنين الابرياء ليحفظ نوعهـا مدى الدهر ؟ ما هي الحكمة في تفجر البراكين النارية وقتل الالوف من عباد الله بغتة وهم يصلون في بيت الله ؟ ما هي الحكمة في اطلاق الاعاصير الجوية على بلدان آمنة فتبتلع وهي سائرة الوفاً من النساء والرجال والاطفال . المذنبين والابرياء يمحقون على حـد سواء ما هي الحكمة من تلقيح الشر العام بجراثيم الخير . الا تقدر القوة الالهية ان توجد في العالم خـيراً خالصاً صافياً نقياً ؟ ما هي الحكمة في الطوفان الذي لا يحـدث غالباً الا في الاراضي المأهولة المزدحمة بالسكان ما هي الحكمة في اطلاق حرية الزلازل والزوابع لتفترس من هم بالحرية اولى وبالحياة احق ! ما هي الحكمة ايها القارئ الحكيم في تواطؤ كل هـذه العناصر التي لا تعقل على هذه النفس الحاسة — نفس الانسان الذي من اجله خلق الله كل شيء ومن اجله سخر الليل والنهار . وهل لجهل الانسان دخل في هذه النوازل والنكبات والحوادث والضربات ؟ وهل يعد البحث عنها كفراً والسؤال الحاداً .

فليجرد القارئ نفسه عن كل العقائد والخرافات ولو هنيهة من الزمن وليسألها هذه الاسئلة . ولا يجب عليه ان يهتم بما اذا كنت اعتقد بالله ام لا . واللبيب الذي يؤلف من التلميح تعليماً ومن الاشارة كتاباً . ان اعتقادي كامن بل ظاهر في سطور هذا الكتاب وفي اضعافها . فعلى القارئ ان يعمل الفكرة قليـلاً .

عظة رأس السنة

ليس لي ان اخرج هذه الليلة لاستقبال السنة الجديدة وبوق الفرح بيدي كما كنت افعل ايام الصبوة . وهـذا والله يحزنني . اراني الآن مقيداً في جانب مكتبي بقيود لا اعرف ما هي ولكنني اشعر بقوتها . اراني واقفاً على المنبر الذي ابتعته ببوقي . فليعذرني الواعظ اذا وقفت هذه الليلة موقفه . وابديت بعض الافكار بطريقة بسيطة فعَّالة . لا بأس من ان اقف بين قرائي ولو مرة واحدة لالقي عليهم عظة رأس السنة هـذه . وهي عظة قلما يعظها القسس وقلما ينتبه اليها الواعظون على المنابر . — نودع هذه الساعة العام المنقضي ونود لو ودّع معه كل منا سيئة واحدة من سيئاته العديدة . انا لا اطلب منكم المستحيل ولا اسألكم الانقطاع بتة عما قد الفتموه . ولا احاول حرمانكم مما هو لذيذ لديكم وعزيز عليكم . انا ايها الاخوة ممن تتوق انفسهم الى الكمال البشري ولكنني احلم بذلك حلماً ويا ما احيلى الاحلام . لا يهمني بث روح الكمال في العالم اذا كان ذلك يقضي على فرد من البشر بشيءٍ من بذل النفس او بشيءٍ من السعادة . ليست الكمالات البشرية تعليماً سياسياً او دينياً لنبثها بالقوة والاكراه ولنعززها بالسيف والنار . لا . على الفرد ان يطلب الكمال طلباً . يجب ان تتوق نفسه اليه . يجب ان يهيم هياماً بمنيته الجميلة قبل ان يفوز بها . ولا يجب ان

يُكره على ذلك اكراهاً . انا اذاً اطلب التحسين اليوم والتعديل ولا اطلب الاقلاع كل الاقلاع عما اظنه خبيثاً مضراً . انا اسألكم ان تقصدوا قصداً حسناً وانتم في باب العام الجديد واقفون . اسألكم ان تساجدوا بارادتكم لتتمموا ما تقصدون . اسألكم ان تثبتوا على ما تنوون اتمامه من التحسين والاصلاح فيكم وفي بيتكم وبيوت جيرانكم وانسبائكم .

في كل منا مغامز وسيئات عديدة نعرفها كما يعرفها اعداؤنا واصدقاؤنا ولو قصد احدنا ان يزيل عيباً واحداً فيه او ينزع عادة واحدة قبيحة منه لتحسنت حال الهيئة الاجتماعية بعض التحسن لقل فيها الفساد . لضعفت دواعي الخصومات . لتلاشى قسم من الظلم والاستبداد . واني تسهيلاً للقراء الذين اجلهم واسعافاً لاولئك الذين يتلهون باشغالهم عن درس شؤونهم الروحية والعقلية واصلاح ما فسد منها واعوج . انشر اللائحة الاتية وهي العظة بالذات وللقارئ ان يزيد عليها اذا شاء ولكن ليس له ان يلغي شيئاً من الشريعة او يخل بحرف من الناموس (اي شريعتي وناموسي) .

اذا كنت مسيحيا ايها القارئ فلاتضطهد اليهود وتحتقرهم ولا تساعد حكومتك على ذلك . واذكر ان ديلك هو ابن دينهم وان مخلص العالم هو نسيب مخلص العبرانيين . واذكر ايضاً ان بين النصارى كثيرين ممن ينامون مثل اليهود على صكوكهم

يحلمون برباء اموالهم ويسلبون الايم فلسها واليتيم ديناره والفلاح بيته وما ملكت يمينه • فلا تحتقر اليهود اذاً

اذا كنت مسلماً فلا تكن من ذوي الغيرة والحماس في امور دينك واعلم ان الزمان يقرب الاديان بعضها من بعض ولا يبعدها فكن انت ابن زمانك فقد ورد في بعض الآثار : خلِّقوا ابناءكم باخلاق غير اخلاقكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم •

اذا كنت اسرائيلياً فاهدم ولو ذراعاً واحداً من الجدار الواقف بينك وبين بقية الشعوب واذكر ما جاء في القرآن « ولكل اجل كتاب » ولو هدم مثلك كل عبراني ذراعاً واحدةً من السور المقدس لسهل امتزاجكم بالشعوب والامم فتعاملون اذ ذاك بين النصارى كما يعاملون بعضهم بعضاً • اي انهم يضطهدونكم سراً بعد ان اضطهدوكم جهراً وهذه من حسنات تمدننا الحديث

اذا كنت درزياً فاذكر ان الحاكم فعل ما فعل في زمانه من اجل انبساطه وسروره فقط لا من اجل الآلهة الساكنين وراء النجوم فلا تأخذ المسألة كلها بالجد اذاً • وان دعتك دولة اجنبية الى القتال في جبلك فحارب مع المظلوم مهما كان دينه • حارب الظالم وان كان حماك او اخاك او اباك او ذا مال •

اذا كنت كاهناً او قسيساً فلا تعظ رعيتك فى المسائل اللاهوتية التي شغلت توما الاكويني والقديس اوغسطينوس طول حياتهما وماتا اخيراً حائرين • بل القِ عليهم مثل هذه

العظة اذا كنت تحب خيرهم وخير نفسك . ولك ان تسرق ما شئت منها وانا لا اقول شيئاً . فالغاية تبرر الواسطة

اذا كنت شريفاً فارم شهادة اصلك الى النار واذكر اننا كلنا من فصيلة واحدة نشارك ذوات الاربع في كثير من الامور

اذا كنت صاحب لقب ورتب واوسمة فاذكر ان غلادستون رفض الالقاب التي عرضتها عليه الملكة فكتوريا وان سبنسر رفض الوسام الذي قدمه له امبراطور المانيا . واذا تأملت ذلك ترى من الصواب ان تبقي لقبك لنفسك وتعطي اولادك الاوسمة ليلعبوا بها .

اذا كنت قاضياً فلا تحكم على المتهم بالحبس او بالموت اذا خامرك ادنى ريب في التهمة . تبرئة المذنب خير من قتل البريء واذا كذب الضعيف والقوي او الفقير والغني امامك فاذكر ان هذا يكذب تعمداً وذاك يكذب مضطراً فاغفر للضعيف الفقير اذاً وخذه بعفو الشرع الجليل

اذا كنت استاذاً فلا تعلم تلامذتك ما لا تدركه انت . لا تعلمهم مالا تفهمه ولا تعتقد صحته

اذا كنت جندياً فلا تصوب بندقيتك الى عصابة مسلحة بالحق . لاتحارب شعباً يطلب الحرية والاستقلال

اذا كنت طبيباً فلا تكن شاعراً خشية ان يقال فيك

ما زار في ضحوة يوم فتى ... الا وفي اصيله رثاه

اذا كنت كاتباً فلا تحرك قلمك الا لتعزيز الحق على الباطل وطلِّق الرياء والمجاملة والتدليس طلاقاً باتاً .

اذا كنت اديباً فلا تترفع عن الاشغال التي تزيدك صحة ونشاطاً . واذكر ما قاله كاتب اميركي : الاديب الحقيقي من يحسن الفلاحة كما يحسن الكتابة .

اذا كنت حوذياً فحب خيلك كنفسك واذا حرن حصانك مرة فدعه يحرن مرتين او ثلاثة قبل ان تحرك سوطك . واذكر ان تحت الجلد الذي تسيطه خيوطاً وعضلات حساسة تشعر بالالم كما يشعر به كل مخلوق حي . فكن شفيقاً اذاً ولا تضرب خيلك فترهقها وتهلكها .

اذا كنت فقيراً فلا تحسد الغني وليكن لك تعزية بانك آمن من تعدي اللصوص وغدر الفوضويين .

واذا كنت ايها القارئ عاقلاً حكيماً تجد ما يهمك ويفيدك في هذه العظة او في هذا الجدول . فتش عنه واعمل به ونبه اليه صديقك وجارك . وهانذا اهنئك سلفاً واهديك سلامي .



من على جسر بروكلن

أحبك يانويُرك على ما فيك من حركة وضجيج وازدحام . أحبك على مافيك من غريب الخزعبلات والاوهام . احبك وان كنت لا تحفلين بما يحلمه شعراوءك من جميل الاحلام . احبك لا من اجل ملاهيك الحافلة وحدائقك الزاهرة وصروحك الشامخة ومتنزهاتك الفسيحة الباهرة . ولا من اجل بناتك النشيطات الجميلات او نسائك المترجلات . بل احبك من اجل جسرك العظيم فقط . ذلك الجسر الذي يراه المرء في الليل عن بعد وقد أضيء بالانوار المتنوعة الالوان فيظنه القسطان . ومحبتي لهذا البناء الحديدي العظيم محبة الصانع لشيء جميل صنعه . احبه كانه ملكي الخاص . احبه كأنه صنعة يدي . وكلما داهمتني جيوش الهموم واليأس سرت الى الجسر وحصنت هناك نفسي . هناك انصب خيامي وبين ابنية المدينتين ارفع علمي . واجيش من النور والهواء جيشاً جراراً تتبدد امامه غيوم الغم وتذوب ثلج الاكدار . فاقف اذ ذاك منتصراً والهواء البارد النقي يورّد خدي . اقف في منتصف الجسر فوق المراكب والبوارجا الجارية تحتي وبين العربات والارتال المارة عن يميني وشمالي واتهلل بفوزي المبين — بفوز النفس على الهموم المحدقة بها — على الرزايا التي تغشيها . لا جرم ان من يقطع الجسر ماشياً كل يوم يستغني في

حياته كلها عن الطبيب والكاهن والمحامي – يستغني عن الطبيب لان الهواء النقي والمشي هما الطبيبان الحقيقيان . يستغني عن الكاهن لان المشي يساعد على التأمل والتأمل يسمو بصاحبه الى ما فوق السفليات ويعقد بين خالقه وبينه ذاك الاتحاد الذي تتوق اليه كل نفس بشرية سامية . ويستغني عن المحامي لان النفس اذا استحمت كل يوم في نور الشمس وانتعشت من نسيم الصباح وناجت في الفجر خالقها يتولد فيها للخصام كره شديد .

الوف من الناس يقطعون الجسر كل يوم ولكن كم هو عدد من يمشون ولا يخاطرون بانفسهم في الارتال المزدحمة ، عددهم اقل من عدد الحكماء في العالم . على الجسر طريق رحبة خاصة بالمشي وطريقان ضيقتان لسكة الحديد والمركبات الكهربائية واذا اعتاد جمهور الناس ان يعبر الطرق الضيقة في الحياة ترى الارتال ابداً مزدحمة وطريق السير الواسعة ابداً مهجورة .

في احد ايام الشتاء الشديدة الرياح الكثيرة الامطار قطعت الجسر ماشياً على عادتي . فكم من شخص تظنني صادفت في طريقي رجلاً واحداً وبوليسين . اما البوليسان فلا فضل لهما في قيامهما هناك ولكن الشخص الآخر جدد فيّ الرجاء . ما اجمل المطر على الجسر وعلى النهر تحته وما اقبح قعقعة المركبات والارتال وقد شحن فيها الناس كالمواشي ما اشقى هؤلاء الناس . ما اثمن اوقاتهم وما ارخص حياتهم ما اعظم اشغالهم وما اصغر اعمالهم . هم يخافون

على جلودهم من الامطار ولكنهم لا يخافون على رئاتهم من جراثيم الملاريا والسل • يهربون من الهواء النقي ومن تحت سماء الله الواسعة لان ذلك تستوجبه التجارة • يكرهون المشي لانه مضر باشغالهم فبئس الارباح ونعم الخسارة • يرى السائر على الجسر ان الطريق الجميلة الرحبة قد خصصت به وبقليل من مثله فاذا مشى هناك يقدر ان يرفع يديه الى العلى ليمجد خالقه دون ان يسيء الى احد ويقدر ان يتنشق الهواء ملياً غير ممزوج بهدروجين البشر •

ولكن لننظر في المسألة من وجه آخر . لو كان كل من يقطعون الجسر حكماء تهمهم صحتهم اكثر من تجارتهم لازدحمت طريق المشي الرحبة واصبح هواؤها كهواء الارتال . سبحان من دبر الامور ! فالطرق الفسيحة جميلة لان عابريها قليلون . لتزدحم الناس مع جراثيم الملاريا والسل اذن وانا امشي مع اخواني وان قل عددهم على طريق الجسر المتنكب عنها وتحت سماء الله

وفي مثل هذا اليوم وقفت على الجسر بعد الغروب بنصف ساعة وسرحت نظري في مرفأ نويرك الواسع المستدير الجميل — المرفأ الذي لا يخلو دقيقة واحدة في النهار او في الليل من البواخر والقوارب والمراكب واليخوت — بواخر قافلة وسفن حافلة وقوارب راسية وزوارق تشق العباب ذهاباً واياباً وهناك في جنوب المرفأ ترفع الحرية رأسها قائمة على اركانها لتضيء العالم الجديد بضوء نبراسها

رأيتها تلك الساعة تشعل مصباحها في الوقت الذي ظهر فيه البدر من وراء مدخنة في مدينة بروكلن فخيل لي ان تمثال الحرية محطة للقمر على الارض يصل اليها نوره فتعكس الاشعة بعد ان تجتمع على وجهها الجميل وتذكر العالم الجديد بثبات هذا الكوكب القديم. فقلت في نفسي : متى يا ترى تصير الحرية مثل هذا القمر فتوقد مصباحها لا في الغرب فقط بل في الشرق وفي الجنوب وفي الشمال — في العالم باسره!!

متى تحولين وجهك نحو الشرق ايتها الحرية ؟ متى يمتزج نورك بنور هذا البدر الباهر فيدور معه حول الارض ويضيء ظلمات كل شعب مظلوم ؟ أيتأتى ان يرى المستقبل تمثالا للحرية بجانب الاهرام ؟ أيمكن ان نرى لك في بحر الروم مثيلا ؟ أممكن ان يولد لك اخوات في الدردنيل وفي بحر الهند وفي خليج الصين ايتها الحرية ! متى تدورين مع البدر حول الارض لتنيري ظلمات الشعوب المقيدة والامم المستعبدة ؟

وانت ايتها البواخر المقلّة الى اوربا ومصر وعدن والهند منسوجات « نوانكلند » وقطن « فرجنيا » وحديد « بنسلفانيا » وقمح « تكساس » وخشب « فرمنت » خذي معك الى بحر الروم وبحر الهند والبحر الاحمر والبحر المتوسط بعض موجات من هذه الامواج التي تغسل ابداً قدمي تمثال الحرية . خذي معك ولو زجاجة صغيرة من هذا الماء المقدس ورشي منها سواحل مصر

وسوريا وفلسطين وارمينيا والاناضول . والى كل جزيرة تمرين بها وكل بـلاد تقصدينها وكل شعب تحيي سواريك قباب كنائسه ومآذن جوامعه احملي سلام هذه الآلهة التي تنير الان طريقك في الخروج من العالم الجديد وتوكل بك ما لها في السماء من شقيقات باهرات احملي الى الشرق شيئاً من نشاط الغرب وعودي الى الغرب بشيء من تقاعد الشرق احملي الى الهند بالة من حكمة الاميركان العملية وعودي الى نويرك ببضعة اكياس من بـذور الفلسفة الهندية . اقذفي على مصر وسوريا بفيض من ثمار العلوم الهندسية واقفلي الى هذه البلاد بفيض من المكارم العربية . ايتها البواخر الآيبة حيي عن جسر بروكلن خرائب تدمر وقلعة بعلبك واقرأي اهرام مصر سلام هذه المعالم الشاهقة المشعشعة بالكهرباء . سيري ايتها السفن بسلام وارجعي بسلام

* * *

وقد شاهدت الان ثلاثة مناظر عظيمة لا اقدر ان انساها حياتي لا اتناساها لانها عندي اشبه برموز جميلة لدعائم الحياة الروحية الثلاث هي مراحل في رحلتي الفكرية التي باشرتها منذ خمس سنين او من حين ولُدت . نعم اني طفل في العالم الروحي . اني سائح في مروج النفس وأوديتها . امامي مسافة طويلة يجب ان اجتازها وتحتي هوّة هائلة يجب ان اسبر غورها . وفوقي فضاء غير متناه ينبغي لي ان اتمتع بجماله . وحولي من المروج والجبال والانهر والبحار

ما يشغل معظم وقتي لو عشت الف عام ٠

اما المناظر الثلاثة التي تمتع بها طرفي حتى الآن فتركت اثراً عظيماً في نفسي فهي لبنان وسواحله من ذروة جبل صنين وباريز من على برج ايفل ونويرك في الليل من منتصف جسر بروكلن ٠ فالاول انما هو رمز الطبيعة والثاني رمز الفنون الجميلة والثالث رمز الكد والاجتهاد . وهذي هي دعائم الحياة الروحية الثلاث . فالمنظر الاول صنعة الله ٠ والمنظران الآخران صنعة الانسان ٠ المنظر الاول او الطبيعة هو منبع النفحات الالهية والالهامات الروحية . والمنظر الثاني او باريز هو منبع التفنن في الصناعة على الاطلاق ٠ والمنظر الثالث المنبسط امامي الان [1] انما هو عنوان الجهاد والجلد والثبات والنجاح فاذا كنت ايها القارئ شاعراً او مصوراً او كاتباً بل لو كنت صباغاً او دباغاً او اسكافاً فوجّه نظرك الى الطبيعة اولاً تستمد منها الالهام الالهي وعنها تقتبس الالوان البديعة والمناظر الجميلة والاشكال الانيقة والنغمات السماوية وعرّج على باريز ثانياً تتعلم منها دقة الصناعة ولطافة الاسلوب وجمال الفنون وغرابة الابداع وسر الابتكار وانزل على نويرك ثالثاً تأخذ منها الاجتهاد والجلادة وتتعلم من اهلها الاستقلال في العمل والثبات بعد الفشل ٠ الطبيعة — التفنن — الاجتهاد — هذي هي اس الاعمال الفكرية هذي هي دعائم

(١) في الريحانيات بعض المقالات التي كتبت في نويرك وهي تعرف من مواضيعها

الحياة الروحية ٠

لبنان – باريز – نويرك – في الاولى روحي وفي الثانية قلبي وفي الثالثة الان جسدي ٠



فوق سطوح نويرك

دخلت ذات يوم مصعد احدى بنايات نويرك الشاهقة فرفعني الخادم في اقل من دقيقة الى الطابق الاخير منها—الطابق الخامس والعشرين — ومن هناك اخذت ادور صاعداً درجاً من الحديد لولبياً حتى وصلت الى قبة البناية العظيمة — قبة تكاد تختفي بين الغيوم في النهار وتضيع بين النجوم في الليل . قبة ترتفع فوق ابنية نويرك العالية ارتفاع هذه فوق بيوت الفقراء الحقيرة ومن هناك يشرف المتفرج على مدينة نويرك العظمى وينظر اليها نظرة الطائر . ولكن يجب عليه قبل ان يرى اسواقها المزدحمة ان يطل من حالق على سطوحها المشتبكة باسلاك البرق والتلفون المغشاة بالدخان المتصاعد من المداخن ومن آلات سكك الحديد الجارية فوق الاسواق

وبعد ان وقفت في القبة بعيداً عن ضجة الاشغال وحركة التجارة وصياح باعة الجرائد وضوضاء الارتال والمركبات تنشقت الهواء النقي الذي يندر في البيوت والاسواق . تنشقت منه مقداراً وافراً وسرحت نظري فيما تحتي من السطوح وما فوقها من المداخن التي يتصاعد منها الدخان على الدوام في النهار وفي الليل . فخيل لي ان هذه المداخن افواه براكين هائلة تنذر بقدوم انفجار عظيم . فكأنها ايادي اولئك المعدنين السوداء مرتفعة

نحو السماء ليصرف الله عنهم البلاء . وكان الدخان المتصاعد من اناملها هو الفائض من دخان الظلمات التي يسكنها المعدنون ويحفرون بها ساكتين صابرين . الوف من المداخن تنفث في وجه السماء روحها الغازيّ رافعة الى الخالق احتجاجها على القائلين بحركة العمل المستمرة . بالحركة الدائمة التي لا يتخللها راحة ولا هدو تأملت هذا الدخان ملياً ونظرت في تكوينه واشكاله . في اجتماعه وتبدده . في صعوده وسقوطه . في انسلاله وهجومه . فرأيت هنالك اشباحاً وحشية ترتفع تارة وتنخفض اخرى وتهجم على الهواء هجوم الزوابع في الفضاء فكأنها تريد افساده بنفسها الغازيّ القتّال . هي امواج بخارية تتلاطم وتنتفخ وتتبدد في الجو . هذه تشبه حية تنساب وتختفي وتلك تشبه جاموساً يشول برأسه وينطح بقرنيه السماء فيعود منهزماً مسحوقاً متبدداً في الفضاء

اغمض الطرف قليلاً وعد معي الى عالم التجارة والعمل . الا ترى لتلك الاشباح والهيئات المرعبة امثالاً في الهيئة الاجتماعية . الا ترى كيف هذا الجاموس في البورص ينطح تلك النعاج الصغار فيقتلها ومن ثم ينطح خالقه فيقتل نفسه . الا ترى تلك الحية في الهيئة الاجتماعية تنفث سمها في الاخوان ولا تلبث ان تنفد قوتها المميتة فتتلاشى كما تتلاشى امواج الدخان . اترى هذه المداخن فوق هذه السطوح ؟ لينفذ بصرك في الضباب المتصاعد منها فترى ما وراءها من

الشقاء والبلاء ٠من الويل واللأواء ٠ ان وراء هذه المداخن ولن شئت فقل تحتها الوفاً من الارواح البشرية التي تضرب بالمعاول تحت الارض اثنتي عشرة ساعة كل يوم فالدخان هو روح الفحم الذي يحترق في الالوف من الاكوار والمواقد والأتن ٠ ومع الفحم ايضاً تحترق ارواح اولئك الرجال والاولاد الذين يعدنون في ظلمة قتالة لا يدخلها الهواء ولا النور ولا الماء الا بالطرائق الصناعية ٠ فهم يستخرجون الفحم وهم يحملونه الى الارتال التي تنقله الى المدن والقرى ٠ هو عملهم المقدس الذي يحترق الآن امامك ويذهب ادراج الرياح ٠ نعم ان نتيجة عملهم للعالم عظيمة ولكنها لانفسهم عقيمة ٠ هي كالدخان الذي يتبدد الآن تحت عينيك ٠

لا بد لنا من الفحم في الوقت الحاضر ولكن ايبطل في المستقبل استعماله ؟ ان كثيراً من البيوت الآن تستعيض عنه بالغاز للطبخ وللدفاء وبعض شركات السكك الحديدية تستخدم عوضه الكهرباء ٠ نعم قد تنفد المعادن يوماً من الايام فيحرر المعدنون من العبودية التي لا مثيل لها حتى في العبوديات القديمة العبوديات التي ابطلت بحد السيف وسفكت من اجلها دماء الاحرار ٠

لا يمضي شهر الا يحدث في معادن الفحم في هذه البلاد وفي غيرها كوارث تقضي على مئات والوف من المعدنين بالموت

السريع • فكم مرة انهالت الارض على اولئك المستعبدين وهم على اشغالهم تحتها مكبون قانعون فأيمت الوفاً من النساء ويتَّمت الوفاً من البنين • فضلا عن استخراج الفحم فانه تمثال الموت التدريجي البطيء • فكل معدّن يموت بحكم الطبع منتحراً • اذ ليس الانتحار محصوراً بتجرع السم وباستنشاق الغاز وباطلاق المسدس • لا • الرجل الذي يضطر ان يشتغل مع بنيه الصغار تحت الارض فيحرم الهواء النقي والنور وجمال الفضاء لا يموت ابداً موتاً طبيعياً • والهيئة الاجتماعية التي لا تقوم الا بشقاء فئة من بنيها هي هيئة مظلمة مختلة • هي هيئة فاسدة تفتقر الى كثير من الاصلاح والتعديل والتحسين • قد تقدمنا على ما يزعم بعضهم في الحضارة والتمدن • وقد حررنا على ما نعلم العبيد واطلقنا الحرية في بلاد الغرب لكل امرءٍ فقيراً كان او غنياً • ولكن العبودية الجديدة تظهر في مظاهر مختلفة واثواب غريبة • فماذا ينفع السجين قولك له : انت حر • ماذا ينفعه تغيير ثوبه المخطط بثوب الرجال الاحرار اذا ظل راسفاً في سلاسل الحديد مسجوناً في غرفته المظلمة

قد تغيرت القيود وتنوعت السلاسل واستبدل النخاسون بغيرهم • تعددت الاسباب والموت واحد • ان في الولايات المتحدة من العبوديات انواعاً واشكالاً • فهناك العبودية في المعادن والعبودية في ابار الغاز والعبودية في معامل الانسجة وفي عالم

العمل على الاطلاق . فمتى يا ترى يتحرر الانسان حقاً وتشمل السعادة والراحة كل اسرة بشرية .

كفانا تأملاً في المعادن والمداخن والدخان . لنعد الى عالم التجارة لنسقط الى ساحة الجلبة والحركة والضوضاء . ها قد صرت في الشارع اسمع باعة الجرائد ينادون على جرائدهم : اخبار اخيرة ! اخبار مهمة ! ! فابتعت نسخة من جريدة المساء وعدت الى البيت تحت ضباب الفكر وبين دخان النفس ولهيبها . فجلست الى الكانون وقرأت الخبر الآتي :

« اضطراب هائل في البورص وسقوط عظيم في الاسهم ! قد بلغت الخسارة في ساعة واحدة خمسين مليون دولار بسبب سقوط الاسعار الفجائي . »

خمسون مليون دولار تخسر وتكسب في هنيهة من الزمن والوف من المعدنين يضربون بالمعاول عشر ساعات في النهار ويخاطرون بارواحهم وارواح بنيهم في الظلمات الكالحة تحت الارض من اجل دولار او دولارين ! ما اجمل هذا العالم يا صاح . وما الطف هذا التمدن الحديث الذي يأتينا في كل شارقة وبارقة بمثل هذه الغرائب الخارقة .



وفي مثل هذا اليوم طابت جهنم

بيتٌ حقيرٌ صغير . بارد قاتم . لا نور فيه غير نور شمعة ضئيل وما يدخله من نور الكهرباء في الشارع . وكانون فارغ يصفر فيه الهواء الآتي في المدخنة من السطح . وامرأة فقيرة تنتظر رجوع زوجها من المعمل . وطفل مريض يئن من الالم ويرتعش من البرد .

ونحن الآن في اقسى شتاء رآه الزمانُ

اسواق المدينة مغطاة بالثلج والارصفة مغشاة بصفحات رقيقة من الجليد ومياه الانهر جامدة مجلدة وانابيب الماء والغاز متفجرة . والنور منقطع عن البيوت والمساكن والمعدِّنون مُضْربون عن العمل . واصحاب المعادن لا يبيعون من الفحم الا القليل . وشركات الاحتكار ترفع الاسعار اضعافاً وتقفل مخازنها في وجه الامة .

وهذا اشد البلاء على الانسان . —

امرأة فقيرة ترتعش من البرد بالقرب من سرير طفلها المريض وقد بعثت بابنها الى المخزن بآخرِ فلْسٍ معها ليبتاع رطلاً من الفحم حباً بهذا الطفل الذي يموت برداً فعاد الولد سريعاً ورمى السطل الفارغ الى الارض لاعناً شركات الفحم الاحتكارية ونافخاً في يديه المرتجفتين ليدفأهما « لا فحم للبيع يا اماه لا فحم

للبيع البتة » وتقدم نحو الموقد البارد وصفعه بيده او لبطه برجله قائلاً « نعمَ ما كنت عليه امس وبئس ما انت عليه اليوم كنا في الامس نحصل على رطل من الفحم يا اماه ولو بنصف مياومتي واما اليوم فعلى الفحم السلام . واصحاب المخازن لا يكلفون انفسهم الكلام على الاقل . فترينهم جالسين على كراسيهم ينعسون او يَدَّخِنُونَ رافعين رجليهم فوق مكاتبهم غير مكترثين للنساء والاولاد والرجال الواقفين تحت الثلج وفي القر والزمهرير والسطول الفارغة بايديهم . وعوضاً من ان يكلموهم بالاحسان يعلقون رقعة على الباب مطبوع عليها باحرف كبيرة « لا فحم اليوم للبيع » اود والله لو وضعت انامل هذه حول عنق احدهم »

— لا بأس يا بني فالحالة هذه لا تدوم .

وعند ذلك دخل الرجل بيته عائداً من المعمل . فنفض عن قُبَعتِه وثيابه الثلجَ وجلس على كرسي بالقرب من نور الشمعة واخرج من جيبه جريدة المساء وتصفحها دون ان يكلم زوجته او ان يتفقد طفله . تصفحها غائصاً في اخبار المعدنين واصحاب المعادن ثم خاطب زوجته قائلاً — « اليك هذا الخبر . قد اصر المُعدِنون على مطالبهم واتحد اصحاب المعادن المتمولون اتحاداً يمكنهم من امساك الفحم عن الامة هذا الشتاء برمّته . ومنا هذا — اسمعي — وهو لم يزل يقلب صفحات الجريدة . قد ارتفعت اسعار الفحم ستة اضعاف . ورمى اذ ذاك بالجريدة الى الارض

قائلاً بصوت منخفض بطئ : وقد أقفل المعمل ابوابه الى اجل غير مسمى لقلة الفحم وارتفاع اسعاره . فيجب عليّ ان ابكر غداً الابحث عن عمل جديد فما قولكِ — لا بأس . لا بأس يا حبيبتي . الصبر جميل وضمها الى صدره وتقدم نحو سرير الطفل المريض . وبعد ان تفقده وقبله عاد فجلس الى جانب المائدة مع زوجته وابنه فأكلوا قليلاً وهم تارة يفركون ايديهم وطوراً يخبطون بارجلهم على الارض مرتعشين مرتجفين . والطفل يئن من الالم والبرد . وفي اثناء ذلك كان الثلج يتراكم على اسكفة الشباك والزجاج المغشى بالصقيع يقرقع من شدة الرياح والعواصف في الخارج تنفخ في الثلج على الارض فتنثره في الفضاء والهواء ينفخ في المدخنة على السطح فيصفر في القاعة من الكانون الفارغ البارد فوا اسفاه عوضاً عن ان يخرج الدخان من المداخن في مثل هذا الوقت يخرج منها صدى صريخ الاولاد وتأوهات النساء ولعنات الرجال . ويسقط فيها هواء الشتاء البارد ليملأ البيوت ويقتل الاطفال .

قلت ليقتل الاطفال . وليس في القول شيء من الغلو . فاسمع قد اشتد انين الطفل في سريره فاسرعت الام اليه وجست نبضه وعضت على شفتها ونادت زوجها وولدها . ثم دثرته سريعاً بالصوف ووضعته في حجرها ودثرته بقبله . الطفل بارد كالثلج وجامد كحديد سريره . لا الصوف ولا حرارة قبلات امه تعيد

اليه الحياة .

نعم قد مات الطفل من الزمهرير . مات لان الكانون بارد . مات لان سطل الفحم فارغ . مات لان قلوب اصحاب المعادن والتجار خالية من الرحمة والحنان .

ومات مثله كثير من الاطفال في هذا الشتاء ايها القارئ . ان في ضواحي المدينة صفوفاً من العجلات المملوءة فحماً . صفوفاً ممتدة الى مسافة عشرين وثلاثين ميلاً . ان في خارج المدينة الوفاً من قناطير الفحم موقفة محجوزة — الوفاً من القناطير المكدسة المحبوسة عن الشعب . وفي داخل المدينة الوف من العيال تكاد تهلك من الصبر والقر . الناس تصرخ « اعطونا فحماً اعطونا فحماً » واصحاب المعادن وشركات الاحتكار يصدرون اوامرهم بتوقيف البيع الى ان يعود المعدنون الى المعادن . وهكذا يحارب ارباب المال رجال العمل . هكذا تقتل شركات الاحتكار الاولاد والاطفال تعزيزاً لاوامرها وتنفيذاً لمآربها . هكذا يضايق القوي الضعيف في كل مكان . افلا يجدر بالفقراء في هذا الشتاء التمثل بالشاعر العربي اذ قال :

ايارب ان البرد اصبح كالحا	وانت بحالي يا الهي اعلم
فان كنت يوماً في جهنم مُدْخِلي	ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

واي جحيم اشد شقاء واكبر بلاء من الجحيم الذي يعده المتمول للشعب متواطئاً مع الشرع الجليل ومستخدماً قوة

الحكومة لتنفيذ اغراضه وتحقيق مطامعه .

واما هذه الجمهورية الحرة المستقلة التي يقال ان العدل والمساواة فيها سائدان فكم فيها من رجل يشمخ بانفه على الشعب ويحتقر ممثليه ويستخف بالصحافة ويزدري السياسيين ويضحك في وجه رئيس الامة ضحكة الخداع والاحتقار . كم فيها من رجال لا يهمهم برد الفقراء او دفئوا ماتوا او عاشوا فاذا نفد الفحم من العالم يحرقون من مالهم بعض القراطيس ويظل الواحد منهم دافئاً غنياً . نعم ان الواحد من هؤلاء المتمولين يستطيع ان يرفع بيده اليمنى سعر قنطار الفحم الى الخمسة وعشرين دولاراً ويوزع باليسرى مائة الف قنطار مجاناً على الفقراء وكل ذلك بجرة قلم فقط . اهذي هي الحكومة الدمقراطية التي أسست لتعميم المساواة بين الناس . اية شرائع مكّنت هؤلاء الرجال من عملهم وساعدتهم على احتكار ضروريات الحياة والاستبداد بالعباد . فمن المقرر ان اصحاب العزم والحزم من الرجال لايبلغون ثلث ما يتوخونه اذا عاكستهم الحكومة . والشريعة التي تساعدهم على جمع الثروة وحصر ضروريات الحياة ترمي في آن واحد ملايين من الفقراء في حالة تحزن الصدور وتثير الهموم . الحكومة التي تساعد هؤلاء المتمولين العظام تصبح اخيراً عاجزة عن كبح جماحهم . « ان الحية التي تربيها تنفث عليك السم من فيها »

نعم ان الحرية تساعد في هذه البلاد اعداءها على بنيها . نعم ان

الجمهورية الان تساعد المتمول ليظلم بماله كما كانت الملكية تساعد المتوظف ليظلم بنفوذه. وقد قال احد الفرنسيس الحكماء مامعناه : قد تسقط الملكيات من فقر شعبها وقد تسقط الجمهوريات من غنى افرادها . ولا تظن انك راتع في هذه البلاد بظل الحرية والاستقلال وانك عائش تحت سماء العدل والمساواة . لا . فهذه كلها اليوم اسم بلا مسمى هذه امور لاتشعر بعدم وجودها الا متى طلبتها مضطراً . اطلبها اذاً وانا الكفيل بانك لا تجدها . فاسرج سريعاً والجم ان الشتاء كالح والليل دامس والطريق وعرة والمسافة بعيدة .

والدهر بالناس قلب ان دان يوماً لشخص
ففي غدٍ يتغلب



التمدن الحديث

« ان مدنيتنا الحاضرة ثابتة الدعائم راسخة الاقدام . وليس في العالم الان من قبائل البرابرة ما هو كاف ليغزو بلادنا ويهدم في شهر واحد ما شيدناه في قرون . واذا كان هنالك بعض القبائل فقواتهم المتحدة لا تضاهي نصف قوة اصغر مملكة اوربية . من اين تجيء اذاً قبائل الهون والفندال ليدمروا ما شيده التمدن الحديث من معاقل الحضارة ؟ »

قال هذا القول المؤرخ الانكليزي جبن واقر عليه الكاتب سميث . ولكن ما هي (يا ترى) فضائل تمدننا الحديث التي يرجى ثباتها وتعزيزها : هل هي في الحكومات الملكية او الجمهورية التي لم تزل تسن شرائعها مميزةً بين القوي والضعيف — بين الغني والفقير . هل هي في المحاكم التي يفسد فيها المال ضمير القضاة . هل هي في الشركات الاحتكارية التي لا تضاعف خيرات الارض الا لتخزنها وتضاعف اثمانها . هل هي في القوانين السياسية الجديدة التي لا تعزّز الا بقوة السلاح . هل هي في الجند الاحتياطي الذي يعيش من مال الامة فيضاعف الضرائب ويرهق الشعوب . هل هي في الجهل الذي لم يزل يحارب الحرية بترس الخرافة بعد ان كسر سيف الاضطهاد . هل هي في اوضاعنا العصرية التي تؤثر العرض على الجوهر وترفع الاحتيال على الصدق

وتقدم الجريدة على الذكاء الحقيقي والسياسة على العلم والجمال على الحقيقة والمال على العدل . هل هي في ادوات الحرب التي تتكاثر وتتنوع كلما حدثت حرب جديدة في العالم . هل هي في الحروب التي تشهرها الدول الاوربية المسيحية على شعوب آمنة ضعيفة اكراماً لشركة تجارية او لحزب سياسي او لوزير يفادي من اجل شهرته بمصالح الامة ومجدها . هل هي في الاداب العامة التي لم تزل اليوم على نحو ما كانت على عهد قياصرة الرومان . هل هي في الكليات التي تخضع اساتذة الفلسفة فيها لارادة المتمولين الذين يديرون سياستها فلا يدرسون فيها من العلوم الاجتماعية الجديدة ما كان مضراً باغراض ذوي الثروة والسيادة . هل هي في الصحافة التي تزين الشر والرذيلة في عيون القراء بنشرها الفصول الطويلة والصور الغريبة ممثلة فيها من يرتكبون افظع الذنوب يقترفون اكبر الآثام . ما هي فضائل هذا التمدن المؤسس على الطمع وحب المال والاستئثار . التمدن الذي تسن ارباب المال شرائعه فتنفذها سماسرة البورص ويبشر بها اصحاب المعامل وينشرها وزراء الحربية بالمدافع والمدرعات .

ما هو أسّ تمدن اهل الغرب اذا لم يكن التجارة والاستئثار ان روح التجارة الخبيث منبثة في دوائرهم الاجتماعية والمدنية والدينية والادبية . فمن اجل التجارة ينمحون روح حضارتهم في الشرق . ومن اجل التجارة يشيدون المدارس . ومن اجل التجارة

يشهرون الحروب على الشعوب الضعيفة ثم يظهرون امامها بمظهر الصداقة والمحبة والاحسان . ومن اجل التجارة يبشرون بالانجيل ويتحابون . ومن اجل التجارة يطبعون الكتب والمجلات . فالتمدن عندهم هو التمول والسلام

(بشر فلاسفة الجيل الثامن عشر بالاخاء والحرية والمساواة ونهض تلاميذهم السياسيون فطالبوا بهذه الحقوق وسل الشعب سيفه على الملوك في اكثر ممالك اوربا تنفيذاً لمطالبه فحدث ما حدث من الثورات والفتن في اخر الجيل الثامن عشر ونصف الجيل الاخر . وماذا كانت النتيجة . هل تتوجت الحرية . هل شملت المساواة الناس . هل توارت اختلافات الامم وتلاشت الضغائن وحزازات الصدور ؟ سرح رائد الطرف ايها القارئ حيثما يممت واجبني بالايجاب ان استطعت . اعلنت الامة الاميركية استقلالها سنه ١٧٧٦ وها قد مر عليها الان مائة وثلاثون سنة وهي لم تزل بعيدة عن الاستقلال بعدها عن المملكة التي حاربتها وخلعت نيرها ايام الاستعمار . نعم قد استقلت عن مُلكٍ متوج ولكنها وقعت في قبضة ملوك لاتلبس التيجان

تأمل هولاء العملة الفقراء الذين يطلبون من اصحاب المعامل زيادة اجورهم كي يستطيعوا القيام بمعاشهم ومعاش عيالهم . فان كل ذي عقل يفكر وقلب يشعر يرى صحة دعوى العملة واعتدال مطالبهم . فالشعب والصحافة والسياسيون وارباب الدين

يشعرون شعورهم ويتمنون لهم الفوز ولكن هل يصغي اصحاب الشركات لصوت الشعب . قد تألفت الجمعيات وانشئت اللجان وعقد المؤتمرات لحسم الخلاف بين العمال وارباب المال فكانت النتيجة سدى وذهب العناء ادراج الرياح .

دعا مرة رئيس الولايات المتحدة اصحاب المعادن وسألهم ان يتساهلوا مع عمالهم ولو من باب المجاملة فرفضوا . قام ارباب الدين وكرروا رجاء الرئيس فرفضوا . قامت الصحافة فسألت ورجت والتمست وتهددت وانذرت والمتمولون على عنادهم مصرون . قامت الامة من اقاصي الغرب الى اقاصي الشرق تطلب اقامة الحدود واصحابنا جبابرة المال اصم من ابي الهول . فما هو استبداد حكومة جورج الثالث بالنسبة الى هذا العناد والتكبر والطغيان والتجبر

يقولون ان الاعوجاج في الجمهوريات يتقوم بالاقتراع فنقول لهم ان كل صوت كبيراً كان صاحبه او صغيراً يشترى ويباع بالدولار . فاكثر الامركيين مثلاً لايقترعون الا لمن يزيد في اصواتهم . وهذه من مظاهر التمدن الحديث التي نود ان لا تدوم . يقولون ان الحرية الشخصية مطلقة لكل فرد في الحكومات الحرة المستقلة . وما جوابنا لهم الا ان الجرائم الفظيعة التي تحدث بالعشرات كل يوم في المدن الكبرى ليست الا بعض نتائج تلك الحرية . فالتسميم والقتل والطلاق التي تزداد حوادثها

يوماً فيوماً كلها من مظاهر التمدن الحديث الموهوم

اما الاخاء فكلمة لامعنى لها الا في معجمات اللغة فالتمدن الحديث يولد في كل فرد عاطفة الكبرياء والانفرة والاثرة والخشونة ورجال المغرب لا يقتربون من احد الا اذا كان لهم منفعة شخصية فاين الالفة واين الاخاء واين الضيافة واين الولاء . سفكت دماء الملايين من الناس في الفتن الاوربية العديدة وما اثمرت هذه الدماء المهدورة ثماراً توازي تلك النفوس البشرية اذ انا لم نزل سياسياً وادبياً واجتماعيا في الموضع الذي وجد فيه الناس والحكومات قبل الثورات . لم نتقدم الا في العلوم فقط . وما سوى ذلك فلا اعتراض عندي على تدميره وقد فات الفيلسوفين اللذين نقلنا عنهما العبارة السابقة ان هذا التمدن الناشئ بين الكنائس والمكاتب والملاهي والمتاحف والقصور والمشيد على المال والتجارة والظلم والاستئثار لا يولد الا الرذيلة والجهل . ومن الجهل والرذيلة يتألف جيش بربري عرمرم ليست جيوش آتيلا وتيمورلنك وجنكيس خان بالنسبة اليه بشيء واذا زحف جيش الجهل والرذيلة على معاقل تمدننا الزاهر الباهي يجعل عاليها سافلها كأن لم تغنَ بالامس . وقصارى القول ان الخطر على تمدننا الكاذب هو من الداخل لا من الخارج . هو من انفسنا لا من الاعاجم البرابرة .

الفقر وبنوه

التمدن الذي يقضي على الاولاد ان يباكروا بكور الزاجر ليذهبوا الى المعمل لا الى المدرسة هو تمدن ناقص الجهاز مختل النظام . والهيئة الاجتماعية التي يحرم فيها ابن الفقير التهذيب هي هيئة فاسدة تعزز فيها مصلحة اهل السعة وتهمل حقوق بني الفاقة . والحكومة التي تتغاضى عن الاباء الفقراء الذين يشغلون اولادهم في المعامل طمعاً باجورهم الزهيدة هي حكومة معوجة تحتاج الى نواب عادلين حكماء منزهين يسنون لها شرائع قويمة وقوانين رادعة . تحتاج الى رئيس خبير بامراض الامة ينبه مجلسيه « اي مجلس الشيوخ والنواب » من حين الى اخر ويحرضهما على سن مثل هذه الشرائع . تحتاج الى صحافة حرة عادلة مجردة عن المطامع الذاتية لتطالب بها حينما تهمل . لتحتج وتعترض حينما تداس . لتذب عنها حينما يحاول افسادها ذوو المآرب

وقد يقال ان الاباء الفقراء وخصوصاً المعيلين منهم يحتاجون الى اجور اولادهم . ولا يكون العيال غالباً الا بين طبقات الشعب الوسطى وبين بني العيلة والفقر . اجل ان المتكئين على وسائد الريش المتسربلين بالخز والحرير الخارجين من بيوتهم في المركبات السائرين الى الحدائق في السيارات اولئك يعرفون كيف تقاتل الاعيال وكيف ينقرض النسل وتقتل الاطفال .

اولئك يميتون الانفس في الجنين مع توفر المال لديهم وذوو العيلة يتكاثرون وان ضاقت بهم الاسباب . اي والله ان جاز للانسان قتل نفس في الجنين فالفقير بهذا الترخص اولى . فالفقر يضاعف بنيه والحكومة لا تنشئ نزلاً مجانية في جانب المدارس العمومية ولذلك ينهك الاحداث في المعامل قواهم فتنقبض انفسهم صغاراً ويفقدون الحزم والعزم كباراً . ويشبون جهلة اشقياء لا يعرفون من سنن الحياة الا التمرد والعصيان . افلا تخاف الحكومة على نفسها من اولئك المستعبدين صغاراً الثائرين كباراً . لتكفل لابائهم اذاً معايشهم لتنشل الصبيان من عبودية الاشغال الشاقة . لتنشئ نزلاً مجانية في جانب المدارس العمومية فلا تموت اذ ذاك في المعامل الآمال ولا تعدم الامة في المستقبل اولئك الرجال .

وليس الذنب على الاباء الذين يُكرهون اولادهم على العمل عوضاً من ان يكرهوهم على العلم فهناك احوال ترمي بالناس الى هوة الفقر وهم لا يعلمون . ولكن التعميم يضلل فرب اناس تؤاتيهم الفرصة ولا يغتنمونها او انهم يرونها بعيدة عنهم فلا يتبعونها او انهم ينظرونها ولا يجدون من يساعدهم على الظفر بها . كم من فقير لا يستطيع المحامي ان يبرئه في محكمة العدل . وكم من محاويج جلبوا على انفسهم الفاقة وما يليها من البؤس واليأس والشقاء والبلاء . نعم الفقر يولد الجهل والرذيلة والامراض الفقر يوجد البغض والحسد والخصومات . الفقر يقتل المحبة

والرجاء والآمال ويذهب بالاباء وعزة النفس والجمال • هذا اذا استثنينا افراداً ينجحون على رغم انف الفاقة المحدقــة بهم • واكثر هؤلاء هم من الحكماء والعلماء والفلاسفة والشعراء • اناس خصوا في البدء بنصيب وافر من العقل فعاشوا راضين بافكارهم وعلومهم وتصوراتهم . وفقر الفيلسوف هو غير فقر الجاهل هو غير الفقر الذي يبعد الصبيان عن العلم والنور ويرميهم بين الالوف من امثالهم في المعامل . هو غير الفقر الذي يضل النفس ويضعف العقل ويعمي القلب . هو غير الفقر الذي يشوه الخَلق والخُلق ويذهب بالآمال ويغير طبائع الرجال . نعم ان مثل هــذا الفقر لحليف الجهل واليف القذارة ورسول الفوضى . ولكن ما هو ياترى سبب الفقر ؟ هي مسألة اقدم من يعقوب بن اسحق بن ابرهيم الذي خــدع حماه ليكثر غنمه فيجني من ذلك مغنماً . نعم هي مسألة قديمة ولكنها تظل جديدة لانها لا تحل ما دامت الاحكام في ايدي ذوي المآرب والاغراض الذاتية . لا تحل مــا دام من يستطيعون حلها بعيدين عن مجالس الامم التي تسن فيها الشرائع والقوانين . لا شك ان كتابات تولستوي تسر الملايين وتسليهم اذا لم نقل تفيدهم وتهذبهم ايضاً . ومن جملة المعجبين بهذا الرجل العظيم كثيرون من النواب والموظفين في روسيا . ولكن لو انتخب تولستوي ليجلس مع المتشرعــين ونهض ليقترح على المجلس سن شريعة فيها صيانة حقوق الجمهور لا حقوق الافراد

فقط لو نهض ليقرأ على زملائه فصلاً من احدى رواياته او مقالة من مقالاته العديدة في المواضيع السياسية والعمرانية وسألهم العمل بما جاء فيها فماذا تراهم يفعلون . الا تظنهم يضحكون في وجهه ويعاملونه كما عومل غونبلاين بطل رواية فكتور هوغو المعروفة بالرجل الضاحك لما وقف في مجلس الاعيان في بلاد الانكليز ليدافع عن الفقراء والبؤساء ويطلب من زملائه النظر في حالتهم المحزنة نعم هذا يكون جزاء من يطلب في مجالس الامم مراعاة حقوق الملايين من احلاف الفقر والظلمة والشقاء .

يقرأ المتشرع روايات تولستوي بجانب موقده فيلتذ بها ويعجب بكاتبها ولكنه يسخر بمبادئها في مجلس الامة ويندد بتعاليمها في البلاط الملكي . ولماذا . لانه لا ينتخب ثانية لمنصبه اذا تظاهر بمثل هذه المبادئ . لا ينتخب ثانية اذا قال يجب علينا ان نسن شرائع للغني والفقير بدون تمييز وتفضيل . وكم من المصلحين يتشدقون وهم عن مجلس الامة بعيدون . وكم من الكتاب يغتنون بندبهم حظ الفقراء والبؤساء . ولكن لينتخبوا اولئك الى مجلس التشريع فينبذون مبادئهم ظهرياً قبل ان يدخلوا الباب . ويجلسون هنالك مع بقية الاعضاء ويقترعون مع الاكثرية وهم ساكتون .

ان خيرات الارض تكفي سكانها اذا وزعت توزيعاً عادلاً على الجميع . القمح الذي يزرع في الولايات المتحدة سنوياً يقوم

بقوت سكان الارض كافة . وهذه حقيقة راهنة فقد قرأت مقالة في كيفية تربية الماشية في احدى المجلات الاميركية جاء فيها ان الولايات المتحدة تذبح سنوياً ثلاثين مليون رأس من البقر فاذا قسمنا هذا المقدار على سكان الولايات المتحدة فقط تكون حصة كل شخص رأساً واحداً من البقر فيه اكثر من اربعمائة رطل انكليزي من اللحم فهل يحتاج الواحد منا اكثر من رطل لحم كل يوم وقال كاتب المقالة ان هذه البلاد المترامية الاطراف فيها بقاع من الارض غامرة غير آهلة تصلح للمرعى فلو عنيت بها الحكومة لتمكنت من تربية اضعاف مايربى فيها الان من الماشية . ولكن مع وجود هذا القدر الوافر من القمح ومن اللحم لايزال المتسولون والبائسون يطوفون اسواق المدن الكبرى وكثيراً مايموتون جوعاً ولا يزال الملايين من الفقراء عاجزين عن ابتياع اللحم كل يوم . فاين الزائد من اللحم ومن القمح اذاً ؟ هي مسألة بسيطة . ان شركات الاحتكار تشحن الزائد الى الخارج لتضاعف ارباحها . هناك القمح مجموع بالقناطير . هناك جبال من الدقيق تطلب من يأخذها ويوزعها خبزاً على العالم وهنا الوف وملايين من المساكين يشترون رغيف الخبز بدمهم ودم بنيهم الصغار . قمحاً ينتظر الطاحن . وطحيناً يلتمس الخباز والالوف من البشر يطلبون خبزاً والمحتكرون يقولون لا . ولماذا . لان الاسعار هابطة ولا ربح في البيع للافراد المحتكرين

واما النتيجة – نتيجة هذا الاحتكار على الفقراء فلا حاجة الى وصفها . ولا نريد ان نهول بقبحها امام القارئ وتخيفه . ولكن الحالة هذه لا تدوم . ان البورص هو السد المنيع بين مخازن الاحتكار وبين الشعب . بين البائع والشاري . ولكن متى جاء الفيضان فلا يجدي ذاك السد نفعاً . نقيم السدود متى كان الماء وشلاً او غزيراً . نبنيها لتزيد كمية الماء او لنمنع فيضانها على الارض المجاورة . ولكن متى جاء الطوفان وفاضت الانهار ماذا تجدي السدود الصناعية ؟ اتقف اختراعات الانسان في وجه الطبيعة وقواتها ؟ ايقدر السمسار في البورص او محتكر القمح مثلاً ان يسكن الهياج متى هبطت الاعاصير ؟ اذا كانت خيرات العالم غزيرة الا يجب ان تسود القناعة والسعادة في جميع البشر الا يجب ان يكون الكل على مبلغ الكفاية ؟ متى يستريح الافراد من التخمة ويأمن الجمهور من الجوع ؟ كم يموت من المتمولين بالانتفاخ وكم يموت من المساكين بالانقباض ؟ ومتى يارب تتساوى الاعضاء وتتوازن فتظهر على الهيئة الاجتماعية علائم الجمال ودلائل الكمال . ولا اظن ذاك اليوم يراني ويراك ايها القارئ ولكنني اؤكد انه آتٍ وكل آتٍ قريب



الضجيج والضوضى

قالت اشجار الغابة لاشجار البستان لماذا لا نسمع لاغصانك حفيفاً فاجابت لانني استغني عن ذلك بنمو اثماري التي تشهد لي . ثم سألت اشجار الغابة قائلة : ولماذا نسمع لاغصانك هذا الصوت القوي . فاجابت اشجار الغابة : لكي يشعر الناس بوجودي

« التلمود »

كتبت احدى الجرائد الاميركية فصلاً في مزمار الكنيسة وقيثارها وقالت ان العبادة قائمة بالجلال والجمال والاحتيال . والحق بجانب كاتبها اذ ان حياته وحياة جريدته وحياة اكثر الناس انما تقوم بالتشدق والتبجح . بالضجيج والضوضى . بالزخرف والاحتيال . بالتصنع والتمويه . قال ابو العلاء المعري

والغيث اهنأ ما تراه عطية ما لم يحث بوارقاً ورعوداً

والحكماء الذين يرتأون رأي ابي العلاء ويقولون قول اشجار البستان في التلمود يعدون على الاصابع فهم والحال هذه لا يجدون الكنيسة والصحافة نفعاً . لا سكينة الا في القبر . والضوضى حياة العالم . كيف لا يكون اذاً منشئ الجريدة مصيباً بانتقاده ومعذوراً بتهلله . وكيف لا يتأثر المتدينون من كلامه العنيف فقد شن احدهم عليه الغارة مساعداً باقوال الرسل الابرار وحرج بالتوراة على الطبل والزمر والقيثار . فمن وجه نرى في حجة

المعارض بعض القوة لانها تتضمن اقراراً خفياً بان الديانة المسيحية على حالتها الحاضرة وبزياداتها وطقوسها هي غير الديانة التي وضعها المخلص . وبعبارة ثانية هي اكثر مما وضعه بدرجات . ومن وجه آخر نستصوب انتقاد صاحب الجريدة لاننا مهما سمونا بالنظريات نظل ابداً محاطين بالحقيقة المؤلمة التي تنبئنا عن ميل الجنس البشري الى كل ما فيه تصنّع وزخرفة وجمال . وقرقعة وضجيج واحتيال . والانسان من طبعه حب الهياج والطرب والانبساط فهو يعنى ببطنه اولاً ثم بقلبه ثم بعقله . واذا شئت ان تستميل عقول اكثر الناس فلا تقوى على ذلك الا بواسطة بطونهم او قلوبهم . اما الجدل الفلسفي والبرهان المنطقي فلا يجديانك في البدء نفعاً . يجب ان تخاطب بطن الشعب وقلبه قبل ان تخاطب عقله . والمتدينون اليوم لا يختلفون الى الكنيسة الا اذا كان هناك شيء يطرب ويلذ . واما فصاحة الواعظ ولاهوته وعلمه الراسخ في الوهية المسيح وناسوته فتلك امور قد درج يومها ومضى زمانها وذهب العلم بعزها .

نحن في مسرح كبير يدعى العالم وبنو البشر كلهم ممثلون . واذكر ان شكسبير قال هذا قبلي وقد يكون فكري ابن فكره ولكن ذلك قلما يهم . العالم مسرح كبير . اتحب ان تغص بيعتك بالناس ايها الكاهن . اتريد ان تعقد جا[illegible] ايها الخطيب . اتود ان تقترح على الشعب اقتراحا مفيداً ايها السياسي — اتريدون ان

تجمعوا حولكم من الرجال رهطاً كبيراً ومن النساء جمعاً غفيراً ؟
فما لكم الا ان تعلنوا عن اجواقكم الكبيرة الشهيرة من موسيقيين
ومغنين وممثلين فيجيئكم الناس زرافات وافواجاً ويلتقفون المقاعد
التقافاً ويزدحمون على الدكات ويحشرون في الزوايا فتمثل اذ ذاك
امامهم الرواية فتميد من الجلبة والضوضى البناية . ثم يقوم الخطباء
وينتهز الفرصة الفصحاء فيقترحون اقتراحاتهم العديدة ويبدون
آراءهم السديدة وتميل قلوب الجمع معهم كيفما مالوا وتختم الرواية
بالهتاف والضجيج وقد فتحت بالصريخ والضوضى. فبئس البداية
وبئس النهاية

ولكن اعلن في الجرائد ان الاستاذ الفلاني سيخطب في ليلة
كذا في اكتشاف سيارة جديدة مثلاً . او الشاعر الفلاني الشهير
سيفيض في موضوع الشعر والعصر في يوم كذا وانظر كم يكون
في القاعة من الناس لاستماع خطاب الشاعر او الفلكي . ان جلستنا
هذه هادئة لا جلبة فيها ولا ضجيج . انها لجلسة بسيطة . جلسة
علمية او شعرية لاطبل ولا زمر فيها — لاموسيقى ولا مغنين
ولذاك لايحضرها الا النزر القليل من الناس . اتحزنك الحال
هذه .ولكن ما العمل. نحن في عالم لا يقوم الا بالضجيج والتبجح
ولا ينهض بغير الخداع والجربذة والاحتيال . فارفع اذاً صوتك
وضع بجيبك ضميرك وسر مع الجمع كما يسير ودر بالليالي كما تدور
واما الكنائس الاميركية التي يمتاز اعضاؤها عن بقية

الشعوب بسمو المدارك والتساهل كما يقال فهي مثل الملاهي من حيث الموسيقى والترتيل . اني اعرف عن ثقة ان كنيسة في نويرك تدفع لرئيس جوق الترتيل فيها الفي دولار مسانهة واعرف ايضاً ان الاجراس مع ما اتصلت اليه هذه الامة من التمدن باقية في قباب الكنائس تقلق راحة السكان بقرقعتها واؤكد ان نصف من يصلون يذهبون الى الكنائس ليسمعوا اصوات المرتلين وانغام الارغن فيسمعون عرضاً وعظ القسيس او الكاهن نعم انها لحال محزنة . ولكن افي الوسع تغييرها ؟ وهل هي في الكنيسة فقط ؟ كلا . فهي سارية في كل جمعية مدنية كانت او دينية . نصف السياسة في هذه البلاد الممورة قائم بالضوضى والضجيج والاحتيال كما ذكرت . فانظر الى مجتمعات هؤلاء الاميركان السياسية وتأمل . نحن الان في زمن الانتخاب فحاذر ان تصاب اذناك بالصمم . اسمع اصوات الابواق ودوي الطبول وضجيج « النوبات » . سرح نظرك في الشوارع فترى الالعاب النارية والصور الزيتية والفوانيس السحرية والاختراعات الكهربائية وكلها تستخدم لجمع الشعب وتغريره فتستميله الى هذا الحزب او الى ذاك كلها تستخدم لبث روح حب الوطن في الناس ولاضرام الحماس في قلوبهم . اما الخطابة فهي امر ثانوي فلا تغتر بما تسمعه عن استمالة الشعب واقتياده بالبرهان . الشعب حيوان عظيم يحتال عليه الزعماء ويهيجونه بآلات الطرب

ويستميلونه بانواع الزخرف والزينات ويطبعونه بالاعلانات ثم يرشون عليه قليلاً من الفصاحة وشيئاً من البيان فيرقص اذ ذاك رقصة تلائم ما يسمعه من الالحان.هذا هو الشعب في الجمهوريات نعم ان الطبل هو البرهان المفحم والزمر هو الحجة القاطعة ومنطق هذا الزمان الضوضى . قد تتوق نفوسنا الى السكينة والهدو لعلمنا ان الرعد والبرق قلما ينفعان وان المطر دونهما لا يفقد شيئاً من قوته وبركته ولكن انّى المفرّ من الضجيج . نود لو يجد الناس الله مناجاةً فقط . نود لو صلى المرء في مخدعه . ولكن ماذا يصير في الكنائس والمعابد التي لا بد من وجودها . الا ينبت العشب في ارضها وينعق بوم الخراب في ارجائها لو جُرّدت من اواني الزخرف وآلات الطرب ؟

واما من شن على الجريدة الغارة مسلحاً باقوال الرسل الابرار طالباً ابطال المزمار والقيثار فانا اشعر معه من حيث النظريات فقط واذرف واياه دمعتين على فساد هذا الزمان المضطرب وآله المقلقين وننـدب حظ الدين الذي لايقوم الا بالزخرف والضوضى والضجيج كما هي حالة فرع من الديانة المسيحية بالاخص الا وهو « جند الخلاص » الذي لا اريد ان يكون خلاصي على يده المعتادة ضرب الطبل وعند هذا الحد اودع عدو القيثار آسفاً واسأله ان يضع سلاحه الديني جانباً وينظر الى المسألة من وجهها العملي السياسي الدنيوي فيرى اذ ذاك ان اكبر قسم من الحقيقة

التي ظنها كلها بجانبه هي بجانب الجريدة وباولى حجة بجانبي .
وخلاصة الكلام ان الجريدة مصيبة بانتقادها والمراسل غير
مخطىء تماماً باحتجاجه . واذا كان الضجيج لازماً فالاحتجاج عليه
لازم ايضاً والسلام



6 – روح هذا الزمان

المصلح السياسي في هذه الايام هو ذاك الذي يندد بالحكومة ويطلب تغييرها ليحصل مركزاً فيها . هو الذي ينادي بالاصلاح نفاساً في الاشتهار ان كان شاباً او رغبة في الوظيفة ان كان كهلا او حباً بالمال ان كان شيخاً . وسواء كان جمهورياً او دمقراطياً في الولايات المتحدة او من الاحرار المتطرفين في انكلترا او من اعداء الاكليروس في فرنسا او من الاشتراكيين في المانيا او من الفوضويين او الثوريين في روسيا فالغرض الذي من اجله يناقش ويجادل ويعاكس ويشاكس ويندد ويتهدد هو واحد . الغاية التي تحركه واحدة . الدافع والجاذب لا يختلفان مع المكان ولا يتغيران مع الزمان . فهو حقاً وطني صادق هو غيور على الامة ومصالحها هو مصلح ومحب للبشر ما دام خارجاً عن دائرة الاحكام ما دام ثوب السيادة بعيداً عنه ولكن ساعة ينال امنيته ساعة يتسربل بارجوان السلطة او بصوفها (الارجوان للاوربيين والصوف للاميركيين) تراه عندئذٍ يهجر الصحافة والقلم ويخفض صوته على المنبر وينسى او يتناسى الماضي ويأخذ بزمام الامور كما لو كان القيصر أباه او ملوك البوربون اجداده ! الانقلاب في السياسة لازم وتلوّن السياسيين يكسب المظر رونقاً والتمثيل جمالاً !

ولو تقصيت تعاليم هؤلاء المصلحين لو سبرت غور فلسفتهم

السياسية لوجدتها منحصرة امـا ببطن المرء وكيسه او بشرف الحكومة ومجدها – يجب ان نشبع هذا الشعب الجائع . يجب ان نحرّر الشعوب المدوسة المظلومة . يجب ان نساوي بين الفقـير والغني . يجب ان نحطم الشركات الاحتكاريـة . يجب ان نعزّز تجارة البلاد . يجب ان نؤيـد سلطة الحكومة يجب ان نوسع نطاق المستعمرات . يجب ان نزيـد قوة الجيش . يجب ان نبني المدرّعات – يا لها من فلسفة سياسية بل فلسفة تجاريـة لا أثر فيها لما يختص بالكمالات الروحانية وبتهذيب النفس وترقيـة الشعور يا لها من فلسفة حيوانية لا غذاء فيها للحياة الحقيقية السامية التي لا تزهر ولا تثمر اذا لم يكن لها من القلب والعقل والضمير والنفس اربع دعائم قوية .

وهذه كلها امور تافهة في اعين المصلحين السياسيين فهم لا يهتمون بها . وعندهم ان بطن الانسان وكيسه واهواء الاحزاب وتعصبها هي اهم ما في الحياة . فهم يدغدغون هـذه بالاكاذيب ويملأون تيلك بالمواعيد . بطن الانسان وكيسه وشهواته وتعصبه انما هي أس التعاليم السياسية التي تجعل الاميركان تجاراً والانكليز حكاماً والالمان عساكر والروسيين فوضويين والفرنسويين عبيداً للاحزاب والفتن .

في طنبور المصلح ذات الاوتار العليظة السخيفة وتر واحد اذا ضرب صحيح له في النفس وقع جميل وحتى هذا الوتر وتر الحرية لايخلو

من غنة خفيفة او رنة خشنة وذلك لان المصلح لا يضرب عليه الا اتفاقاً او لاغراض سياسية والشعب البائس الجاهل لا يطلب الحرية غالباً الا لاعتقاده بانها تخوله الاعتداء على الاغنياء ليملأ كيسه وبطنه . الحرية وحدها هي كما قيل سيف ذو حدّين والحرية مع التهذيب نبراس ذو نورين نور يضيء الطريق خارجاً ونور يضيء ويحرق باطناً وفي كل حال هي لاتشفي الامة من امراضها السياسية والاجتماعية ولا تعلم الانسان شرف النفس والمروءة ولا تجعل الشرير صالحاً والمنافق صادقاً والمعوج مستقيماً وان رابك شيء من هذا فوجّه انظارك الى الاحوال السياسية والاجتماعية في الولايات المتحدة .

نعم ينبغي ان تتحرّر الشعوب يجب ان يتحرّر الانسان ولكن لا بواسطة هؤلاء المصلحين لا بسعي هؤلاء السياسيين ولماذا . لان عهودهم من نسج العنكبوت لان مواعيدهم مثل خيال القمر على الغيوم لان اعمالهم تلول رمل لا تدوم لان شفاههم ليست مطهرة لان اعتقادهم ليس من القلب لان نفوذهم ابن الساعة وحليف الاحوال لانهم يحبون الحرية حباً بالشهرة او الوظيفة او المال . وان وفوا مرة بوعد من مواعيدهم المزخرفة بعد ان يتقلدوا زمام الاحكام فهناك البلية الكبرى . هنالك تتوّج الامال والاحلام اذ تهدأ ضوضى الاحزاب وتزول الشكوى فتعنو لهم الوجوه ويدخل الشعب رأسه في ربقتهم بعد ان اخرجه

من ربقة الظالمين من الملوك .

ينبغي للانسان ان يحرر نفسه بنفسه . ينبغي له العمل في الداخل قبل الخارج عندئذ تكون حريته روحية اكثر منها مادية تكون صافية من الغش والخداع تكون اساً للحياة الحقيقية الشريفة لا شعلة نار لاضرام اهواء النفس او طعمة لشهوات الجسد او امتيازاً للسلب والتعدي او برآة للقذف والمقاذعة .

الصالحون وان قلوا موجودون في كل مكان في بلاد الظلم والاستبداد كما في بلاد الحرية والاستقلال . والحكماء وان ندروا ينشأون في تركية وروسيا كما في فرنسا او في الولايات المتحدة وفي اي مكان كانوا يعيشون راضين قانعين لانهم يعيشون حقاً احراراً . والحكومة الاستبدادية مثل الضبع تتركك وشأنك اذا تجنبتها واذا انتهرتها واعترضتها تفترسك . غير ان حرية الصالحين والحكماء لا تلبس القبعة الحمراء ولا تصيح من على المنابر ولا تحفر تحت عرش السلطة لحزازات في الصدر او فراغ في الكيس او خلاء في المعدة . حريتهم تعيش في القلب مع الحكمة ساكتة وتفعل فعلها هادئة وهم مثل حريتهم يعيشون في قلب الامة هادئين ويمشون في سائر اعضائها نفوذهم الحسن وعطر نفوسهم الشريفة ان حريتهم لروحية لانها تنزع من النفس قيود التعصب والتحيز الاعمى قيود الطمع والمجد الباطل قيود الاهواء والشهوات . ولعمري ان تعليم المرؤوس الحكمة والعدل

والفضيلة لخير من التنديد بالرئيس وظلم احكامه . لانك اذا خلعت الظالم وظل الشعب جاهلاً يتبوأ العرش بعده ظالم آخر بيد ان تهذيب الشعب وتعليمه ومعرفته حقوقه وواجباته تضعف الحكم الاستبدادي وتلاشيه بالتدريج تماماً .

اما فعل الحرية في تكييس انفس الرجال وفي تهذيب الاخلاق وترقية الشعور فما هو قوي بقدر ما كنا نظن بل هو ثانوي بالنسبة الى عوامل الوراثة والفطرة والمعاشرة والتهذيب . وما الحرية المعروفة في اوروبا واميركا اليوم سوى سلاح للاحزاب السياسية والخطباء والصحافيين . هو سلاح يقاتل به المنافق احياناً منافقاً آخر واللص لصاً آخر واحياناً تستله رجال الفضل بعضهم على بعض واحياناً ترفعه الحكومة على عصابة من الفعلة محافظة على امتيازات الافراد او سلباً لحقوق زعماء الاحزاب الضعيفة في البلاد . اذ ما الحكم في الجمهورية الا طاعة تقدمها الاحزاب الضعيفة للحزب القوي او الاقلية من المصوتين للاكثرية لان قوة الجيش ليست بجانبهم فالاكثرية اذاً تسلب الاقلية حقوقهم لتتمكن من الحكم وتفعل ذلك بالقوة المعطاة لها لا من الشعب كله بل من قسم منه فقط وهذا هو الباب الذي يدخله المصلحون السياسيون فيمزقون رئاتهم المعتلة وهم يصيحون « حرية الشعب حرية الشعب » ولكن الحرية لا تجعل الشعب الجاهل شعباً مهذباً مستنيراً .

الحرية وحدها لا تصير المرء رجلاً . ولا التجارة ولا المستعمرات تكسب الحكومة مجدا والامة شرفاً اذا لم يكن في الحكومة رجال صالحون وفي الامة رجال حكماء .

اما انتصار هؤلاء السياسيين للمستضعفين والمظلومين فهو في هذه الايام خير واسطة للتوصل الى منصات الاحكام الى المراكز المثمرة العالية . ولكن لو فتشت في تعاليمهم السياسية وفي نهضاتهم ومشاريعهم الاصلاحية عن ذرة من الضمير الحي والاخلاص او عن شيء يسير من الغيرة المجردة عن المنفعة الذاتية لما وجدت ذلك . يلزمنا صلاح لا اصلاح . الصالحون وامثالهم الحسنة قبل المصلحين وجريدتهم والدجالين وعقاقيرهم .

المصلح في هذه الايام هو قوة بخارية لتحريك هذه الآلات الصماء التي تدعى شعباً بل رجالاً . الآت تجارية وآلات عسكرية وآلات صناعية وآلات ثورية و كلها مركبة من دماء زكية ولحم وعظام بشرية . كلها تتحرك عملا بهذه القوة الخبيثة الدافعة وتفني نفسها بالفرك الدائم بالعمل المتواصل بالكد والنصب بالمساعي الباطلة المهلكة بالنهضات الغير مفيدة . تفني نفسها لا من اجل نفسها بل من اجل اصحابها واسيادها الصارخين دائماً وراءها وامامها « الى العمل الى العمل » فقد صمت اذاننا من صراخ الداعين الى العمل ومن ضجيج اصحاب الاشغال . كأن الاموال المتكردسة تصير صاحبها انساناً . كأن العرق على جبين هذا

المخلوق الراكض على موخريه يجعله رجلاً ؟ لو صح ذلك لكان البغل من كبار الرجال . البغل يحمل الاحمال الثقيلة من السواحل الى اعالي الجبال دون ان يفاخر ويتبجح . اما اذا تبادر لذهنك قول القائل « بعرق جبينك تاكل خبزك » فاذكر ان هذا المخلوق الصبور ياكل شعيره بعرق جبينه ايضاً وثق ان الملايين من الناس الذين يعرقون دماً اليوم لا يموتون جوعاً اذا لم يعرقوا غداً

لا ينبغي للانسان ان يقتل روحه ليفثأ جوعه . والذين يملأون بطونهم فقط ولا يشعرون بألم روح جائعة ولا يسمعون صراخ طفل في القلب يطلب الغذاء فلا اظنهم يستحقون الشفقة اذا عرقوا كالدواب والثيران . اشغلوا هذه العضلات واملأوا هذه المعدة فالروح لا تطالبكم بشيء – ماتت الروح جوعاً . واما ذاك الذي لم يزل في روحه التي تميزه عن الثور والبغل رمق من الحياة ذاك الذي نفخ الله فيه نسمة إلهيَّة وخلقه على صورته تعالى ومثاله فهل يجوز ان يعرق في سبيل شركة احتكارية او من اجل جمعية اصلاحية او تأييداً لحكومة استبدادية ؟ لا . بل لا ينبغي ان يعرق في سبيل معدته وامرأته واولاده . العرق في الحمام او في سرير اللذة او على فراش الحمى او في سبيل السرور والصحة – كل ذلك يطاق كل ذلك لازم ومفيد . واما العرق من اجل الرغيف – ولا فرق ان اكله الفاعل او سلبه اياه سيده – فلا يجوز ولا يلزم ولا ينفع ولا يطاق . ولكن فلسفة السياسيين

. البغلية متأصلة في قلوب الغربيين والبغل من ابطال هذا الزمان .
ولا عجب ان اضافوا الى اصنامهم العديدة صنماً آخر فان بين
البعل والبغل شيئاً من الشبه والقرابة . النقطة فوق العين لا
تفرق بين الاثنين . أعوذ بالله من اصنام هذا الزمان ومن الاته
البشرية . أعوذ بالله من طواحين هذا التمدن ومن حجار رحاها .
أعوذ بالله من هذه التعاليم السياسية التي تصير الانسان بغلاً
والبغل انساناً بل بطلاً بل إلهاً .



شهداء العلم

متى رأيت الافراد يفادون بانفسهم من اجل مبدأ علمي او تعليم اجتماعي او مسألة طبية فقل ان سيؤيد ذلك المبدأ ويفوز ذالك التعليم وتتقرر تلك القضية • نعم سيعم انتشار هذه المبادئ البلاد عاجلاً او آجلاً • ستشعر الامة بنفوذها . سينتفع بها بنو الانسان . ولا يقف الامر عند هذا الحد . فان هذه المبادئ تشغل وحدها افكار الباحثين والعلماء فتهتم لها الجرائد والمجلات ويحدث الاساتذة بها تلاميذهم ويجاهر بها القسس من على منابرهم ويباحث الفاعل اخاه بشأنها وهو يقرأ جريدة الصباح . ولولا ذلك لما كان يحدث مفاداة واقدام من اجل هاتيك المسائل فالمرء لايبذل نفسه من اجل الانسانية الا عند ما ترتقي الى درجة يمكنها ان تشعر بما يقوم به الباذلون مهجهم . او بالحري لا توجد الضحية قبل ان ينضج الوسط الذي فيه ومن اجله يفادي الافراد بحياتهم . ولو كان الشعب لا يسمع عن هذه التعاليم شيئاً . لو كانت الجرائد والمجلات لاتهتم بها لما كان احد يبذل النفس والنفيس دونها • مثال ذلك اننا لا نرى اليوم اناساً يهتمون لتأييد النخاسة وتعزيزها . لا نرى اناساً يذهبون شهداء الدين وذلك لان النخاسة أبطلت والابحاث الدينية اللاهوتية اصبحت ثانوية بالنظر الى المسائل الخطيرة من طبية وعلمية واقتصادية

لو دققنا النظر في كل تعليم ومبدأ . وفي كل نعمة يستمتع بها الجنس البشري لوجدنا حقيقة واحدة وراءها كلها . وهي هذه لولا بذل النفس والشهادة لما كانت . فقد كان للدين شهداء وللعبودية شهداء وللحكومات الاستبدادية شهداء وللحرية شهداء ايضاً اما ونحن الان في اول قرن العشرين فنتقدم الى الكهنة والملوك والامراء والاعيان باحترام قائلين : تعالوا ايها العظماء والاتقياء تعالوا واغسلوا ايديكم الطاهرة بدم شهداء العلم

هذي هي المبادئ التي سادت عقول الناس الآن . هذي هي الامور التي تشغل افكار معظم الكتاب والخطباء والفلاسفة في اوائل هذا العصر . وما خلاها من التعاليم دينية كانت او اجتماعية او ادبية هي بالمنزلة الثانية من الاهتمام ولربما كانت سائرة على طريق الاهمال الى ظلمات النسيان . شأن غيرها من المبادئ القديمة والتعاليم المنسية

قد كتبت هذه السطور بعد ان قرأت في صحف الاخبار قصة رجلين ماتا شهيدي العلم في مدينة هافانا وذلك لانهما قبلا ان يجرب بهما الدكتور كلداس مصلاً قيل انه يشفي من الحمى الصفراء فجاء الطبيب ببعوضة فيها مكروب الحمى المذكورة وقدما الشهيدان ذراعيهما فلسعتهما البعوضة فرضا بتلك الحمى وماتا شهيدي الاختبار والتجربة وما هما على التحقيق الا اثنان من الكثيرين يقبلون الضيم ويحتملون العذاب والالم من اجل

العلم مخلص العالم الحقيقي . فالدكتور لازار في الجندية الاميركية مات ايضاً على تلك الحالة اي انه رضي ان تلسعه البعوضة الحاملة للجراثيم في دمها ليختبر تأثيرها ذات شهيداً . وفي باريز الآن رجل يموت من السل اذ انه قدم نفسه ليختبر به الاطباء مبدأ الدكتور كوخ في هذا المرض العضال . وقد تطعم في شيكاغو ثلاثة شبان بمصل السل البقري ليختبر الاطباء ما اذا كان يختلف عن السل البشري واذا كان الاول لايعدي البشر . ان هؤلاء وامثالهم يكفلون تقدم العلم بحياتهم بل يشترون حياته بدمائهم

وكم من قضية طبية لا يستطيع الاطباء حلها الا اذا قدم القلائل الغيارى المحبون للجنس البشري انفسهم للامتحان والتجربة وهؤلاء الرجال الذين يفدون العلم والطب بدمائهم وحياتهم هؤلاء هم شهداء هذا الزمان بل هم الشهداء الذين يستحقون اكليل الغار وهالة القديسين فقد مات شهداء الدين من اجل دينهم وهذا ليس بكثير اما هؤلاء فيموتون من اجل العالم باسره . يموتون اليوم لتقل الامراض في المستقبل وفوائد العلم والاكتشافات مشاعة بين بني الانسان على الاطلاق ولايتوقف دخول سمائها على اذلال الروح وقتل الضمير ومس الوجدانات

رحم الله شهداء العلم كلهم اجمعين فهم اولياء القرن العشرين هم الذين يستحقون « التطويب » هم القديسون الذين يجب ان

يحفظ ذكرهم في كل البيوت وفي المدارس والمعابد وبين كل امة وكل شعب وكل قبيلة . فقل طوبى لهم على ما اتوا عالم العلم والانسانية من الباقيات التي تؤهلهم لأعلى عليين في ملكوت السماوات



الحرب التي تهمني

ماذا تقول ؟ حرب بين الروس واليابان ؟ لا اصدق ذلك . لا اصدقه . نحن في السنة الرابعة من الجيل العشرين . ومجلس التحكيم في مدينة لاهاي ؟ تعالى ان يكون العوبة يلهوا بها السياسيون . لا يا صديقي . انما الروسية مهتمة فى سن شرائع تكفل لليهود حقوقهم فيصيرون والمسيحيين متساوين امام العدل . والشعب الياباني ساعٍ بتربية الزهور واصطناع الاواني الخزفية الجميلة . والجرائد انما هي عادة في البدن — الجرائد كذابة والتلغرافات التي تنشرها زاعمة انها من كوريا وبورت ارثر هي من مدينة اقرب الينا — هي من نويرك بالذات .

ولنفرض انني مخطئ في ظني وان الحرب بين الروس واليابان حقيقة ثابتة . فماذا افعل اذًا ؟ ايجب ان اهمل اشغالي واضني نفسي بمتابعة اخبارها والتحزب لاحد الفريقين . ماذا يهمني من حرب جارية بين دولتين مستبدتين ظالمتين اساسها الآية القديمة الفاسدة « الحكم من الله » ماذا يهمني من حرب لا روح للشعب في نارها ولا اثر للحق في غبارها ولا صدى للحرية في صلصلة حرابها وفي دوي مدافعها .

امبراطور اليابان رجل يحكم حسب اعتقاده على اربعين مليوناً من عباد الله بحق هبط عليه من السماء ويبعث الالوف

منهم الى الحرب ليموتوا من اجله . هو رجل ظالم مستبد خال من الشفقة والمحبـة . ولا شك هو قبيح النفس كما هو قبيح السحنة . وقيصر روسيا — صهصه او اخفض صوتك على الاقل ان جيراننا من الروم الارثوذكس . نعم ولكن لنا ايضاً من اليهود جيران وخلان . واكراماً للقارئ الارثوذكسي الغيور الطف ما كنت انوي كتابته ولكن لا بد من القول ان قيصر الروس ليس احسن من امبراطور اليابان .

وبعد هذا وذاك ما هي الغاية من هذه الحرب ? هل اشهرت للمحافظة على حقوق عادلة — هل فيها تعزيز مبدأ سام او تأسيس تعليم شريف — هل يلحق الشعب المظلوم منها اقل فائدة — هل تخفف الشقاء والبؤس عن الفلاحين في الامتين والفقراء — هل تحسن تجارة الغرب مع الشرق — ما هي الغايـة منها — قل لي ادامك الله غيوراً فاهتم عندئذٍ واتحزب . ما هو مدخل اليابان في كوريا وما هو مدخل الروس في منشوريا ? ما الحرب هذه الا غارة تشنها دولة سراقة على دولة متطفلة . دولة ظـالمة على دولة مستبدة . لا اكثر ولا اقل . ولذلك لا اريد ان اعرف عنها شيئاً الجرائد الاميركية في هذه الايام تقلق الراحة وتبلبل الافكار والعاقل العاقل الذي لا يلتفت اليها .

اسمع يا صديقي . فها انا ذا احدثك عن حرب اخرى تهمني وتهمك ايضاً مراقبتها واستطلاع اخبارها ودرس حركات قوادها

وتدوين حوادثها وانتصاراتها . حرب لا تستخدم فيها المدرعات ولا المدافع ولا تهرق بسببها دماء الالوف من العباد . حربٌ ساكنة ولكنها هائلة — حرب خفية ولكنها واضحة — حرب دائمة ولكنها محيية . حرب سرية داخلية يحارب فيها قائدُ النفس قائد الجسد . ويجيش الاول جيوشه من الافكار والنظريات الكمالية والثاني من الحواس واللذات الحيوانية هي حرب بين الروحيات والماديات هي حرب جارية ابداً في كل امرئٍ حي الضمير سامي الفكر شديد العاطفة كثير المطامع . هي حرب تشهرها عليَّ نفسي كل يوم . ولا استطيع الانتصار عليها دون ان اسيء الى احد بالقول او بالفكر او بالفعل ولا يمكنني التسليم دون ان احتقر ذاتي الروحية القائمة ابداً فوق ذاتي المادية وهذي هي الورطة الخبيثة .

لتنظم الشعراء قصائدهم اذن عن حرب الروس واليابان . لتكتب الكتاب مقالاتهم عن سياسة القيصر ودهاء الميكادو . لينشئ العارفون فصولاً عن داخلية الدولتين ووطنية الشعبين . ليهرول المراسلون الى ساحة القتال في الشرق الاقصى . لتملأ الجرائد صفحاتها باخبار الحرب الجديدة ورسوم المعارك العديدة . واما انا فالحرب التي تهمني مراقبتها ويفيدني درسها وتلذ لي متابعة اخبارها انما هي حرب النفس وابدا بعد حرب الروح والمادة

في نفسي شعلة نار يتصل لهيبها بالمشتري والفرقدين . وفيّ

غريزة حيوانية تغريني احياناً وتجرني الى قعر الهاوية ولكنني انهض منها قوياً نشيطاً وبينما انا افرك جلدي صباحاً في الحمام اسمع صوتاً يناديني قائلاً : عش كما تكتب - حافظ عن ما تحوزه من الكمال وطالب ابداً بالباقي . فاجتهد ان افعل عشر ذلك في النهار واستلقي على فراشي في الليل فاحلم بجمال الحياة الممتزج بالعار والفضيحة . بالمحبة التي تسميها الغيرة . بالمجد الذي يكلله العار . بالمطامع التي تقتلها السلطة . بالشهرة التي تفسدها الانانية والتصنع . بالنفوذ الذي تشوهه الكبرياء والاستبداد بالنجاح الذي يعيبه الطمع والاستئثار بال — كفى كفى ! اي طريق اقرب الى الصحراء ؟



الخيانة وابليس

ها قد دخلنا القرن العشرين ولم يزل في الامم المتمدنة من يقول ان للشيطان دخلاً في شؤون الناس . قد نقحت التعاليم الدينية ولم يزل للشيطان اثر فيها . تغيرت الشرائع المدنية وتبدلت عملاً بسنة الترقي الدائم ولكن الشيطان لم يزل باقياً في مجلات الاحكام ودساتير الامم . رقينا في الحضارة بعض الرقي وتقدمنا في العلوم والاختراعات ولكن العقيدة المفزعة التي ترعب الانسان وتخيفه باقية على قوتها في معاقل تلك الحضارة وثنيات تلك العلوم . هي العقيدة التي تشوه شرائع ارقى دولة اوروبية حتى الان . هي العقيدة التي تشوب جمال الدين المسيحي وتفسد ما فيه من التعاليم الادبية والروحية السامية . هي العقيدة التي « نبعبع » بها الاطفال ونزرع باسمها في جنانهم الصغير بذور الخوف والجبن وضعف الارادة

متى يا ترى ترمد نيران الجحيم ؟ متى يموت الخنّاس الموهوم ؟ متى يزول الخوف والرعب من قلوب البشر ؟ متى نقلع عن تعليم الاطفال الاكاذيب ؟ متى تنقح شرائع الدول المتمدنة ليكون بينها وبين تقدم العلم شيء من النسبة ؟ هذه هي انكلترا تلك البلاد التي نبغ فيها دروين وهكسلي وسبنسر . البلاد التي تفاخر العالم بشكسبير وبَيْرُن وبُرنس لم تزل رائحة الكهف والصحراء

تشتم حتى اليوم من شرائعها المدنية . لم تزل هذه الحكومة تشبه في بعض احكامها الشعوب البربرية التي تؤدي الجزية صاغرة للعرش البريطاني

حكم يوماً في لندرا بالموت على رجل يدعى لنش لانه حارب مع البوير الحكومة البريطانية وهو بريطاني التبعة . وفي عرف الشريعة المدنية المكتوبة قد خان هذا الرجل ملكته وحكومته وشعبه . ولم يزل الموت عقاب الخائن في كل الامم والدول المتمدنة وغير المتمدنة سواء من هذا القبيل ولكن الا يوجد شريعة ارفع من الشريعة المسنونة هل تخلّصنا ايها القارئ الحر من عبودية الافراد لنقع تحت نير عبودية الحكومة . هل وجدت الدولة للانسان او هل وجد الانسان للدولة . الحكومة نفس وقلب وضمير ليدافع عنها كل فرد من افراد الامة او لا يحق للمرء ان يرفض التطوع في جند الحكومة اذا كان ذاك الجند يحارب حرباً ظالمة . او لا يحق لمحب العدل والحق والحرية ان يستل سيفه على حكومته اذا رآها تحارب ظلماً وعدواناً لتقتل استقلال شعب ضعيف وتسلبه حريته . الجندي الذي يهاجم بسلاحه حصون العدل والحق انما هو الخائن بعينه . وهو الذي يجب ان يحاكم من اجل خيانته في المحكمة الحربية . واما الجندي الذي نفض عن حذائه غبار شعبه وتبرأ من امته لما رآها تحارب حرباً ظالمة وتطوع في جيش الحرية والاستقلال فهذا

والله يجب ان يكلل بالغار • يجب ان ينصب تمثاله في عاصمة الامة ليقتدي به كل من جعل الحرب مهنته وحمل السلاح للارتزاق ولكن ماذا تقدم الدول المتمدنة لمثل هذا الآن ؟ اكليلاً من الشوك عوضاً من اكليل الغار ومشنقة بدلاً من التمثال • وهكذا فعلت الحكومة البريطانية بالقائد لنش • وفعلت اكثر من ذلك • فقد قلت ان شرائعها لم تزل مشوهة بالخرافات والخزعبلات والشيطان الموهوم لم يزل في مجلة الاحكام الجنائية واليك نص التهمة التي رفعها نائب الملك الى المحكمة قال :

« قد اغرى الشيطان (لنش) وحمله على ترك الجند البريطاني ليحارب الملكة وحكومتها ولذلك نطلب محاكمته كما يحاكم الخائنون »

« قد اغرى الشيطان فلاناً » تأمل هذه العبارة التي لم تزل في مجلة حكومة تفاخر جميع الشعوب بتمدنها • وهل تظن انه يوجد قاض واحد بين كل قضاة انكلترا المفكرين يعتقد بان الشيطان اغرى لنش ليحمل السلاح على حكومته . ولكن القديم يبقى على قدمه والترقيع من مميزات تمدننا الحديث • اين هو الشيطان وكيف هو ومن هو . وبأي هيئة يظهر للانسان ويوسوس بأذنه كما يعبر عن طريقة تكلمه في الكتب المقدسة ومن منا رآه في غير عالم الخيال

والحق يقال اننا لا نُهذب ونمدن حقاً قبل ان ننزع هذه

الاعتقادات من تعاليمنا . ليس هنالك شياطين غير بشرية . وعالم الجن هو عالم الوهم والخيال . هو عالم الشعراء لا عالم المتشرعين . قد يكون الشيطان جميلا في ديوان الشعر ولكنه في مجلة الاحكام قبيح . الشياطين الموهومة غير المحسوسة وغير المنظورة وهي ناتجة اما عن اضطراب في المعدة او اختلال في العقل او عن جهل بربري . اقول هذا مستثنياً الشعراء . لانهم وشياطينهم سواء



خطـاب المسيح (*)

لو قصد المسيح العود الى العالم لاختـار ان يظهر للوجود بطريقة مألوفة ليكتسب ثقة ابناء هذا الزمان الفاسد فيدعونه الى الخطابة ولا يعاملونه كما يعامل داوي الاميركي اليوم في الولايات المتحدة . وداوي هذا من الانبياء العصريين ممن يمثلون ادوارهم الهزلية مجاناً حباً بلهو الشعوب وتسلية الامم . نعم ان هذا الجيل جيل متمرد عات فهو لا يعجب بالعجائب ولا يحفل بالانبياء .

لنفرض ان المسيح ظهر ظهوراً واضحاً بطبيعته البشرية وبعد ان شب وبلغ الرشد وتخرج في احدى الكليات الكبرى طفق يدرس حالة العالم الحاضرة ويراقب مجرى تعاليمه ونتائجها . فلا جرم ان علمه هذا يحزنه ويغضبه . فاذا كان اليهود قـد صلبوا المسيح بالجسد منذ تسعة عشر قرناً فالمسيحيون الذين يفاخرون الشعوب بمسيحهم يصلبونه بالروح كل اسبوع بل كل يوم ولعمر الحق ان من يعبدون المسيح يؤلمونه وكل صلاة تصعد من فم المسيحيين ابناء هـذا الجيل هي مسمار في صليب المسيح كل

(*) سألني ذات يوم صديقي سليم سركيس ان اكتب لجريدته مقالة موضوعها (ماذا يقول المسيح لو جاء العالم يوم عيد ميلاده ودعي للخطابة في النصرانية وحالتها الحاضرة) فكتبت المقالة هذه تلبية لاقتراحه .

تضرع من تضرعاتهم هو اكليل شوك على رأس سيدهم . نعم ان المسيحية في حالتها الحاضرة لعدوة المسيح . ان يسوع وكنيسته على طرفي نقيض ولو دعي لالقاء خطاب في احدى مدن اوربا الكبرى لاستهل كلامه بالترتيلة التي تنشد في جمعة الآلام فيقول آسفاً :

« ايا شعبي وصحبي اين عهد الايمان »

لانه على نحو ما تقدم لم يزل يعذب ويصلب ان لم يكن بالجسد فبالروح . وبعد ان يتكلم في حالة الكنيسة الحاضرة وفي فسادها ويوبخ الرؤساء وينذرهم ينتقل الى الدول المسيحية فيبرهن على غير عادته (اي انه لا يتكلم بالامثال هذه المرة) بل يبرهن بالبرهان الساطع ان التعاليم الدروينية لا تنطبق بتة على تعاليمه وان الدول والشعوب يعملون بتعليم بقاء الانسب ويتصنعون بحب الضعيف والقريب والعدو . ويقول والاسف ملء فؤاده ان تنازع البقاء ينفي الشفقة والمحبة ويقضي على التمدن بالزوال وعلى الجامعة بالاضمحلال ثم يفيض في المبادئ الاشتراكية ويقابل بينها وبين تعاليمه ويبين وجه الشبه بين الاثنين ويطلب من دول الارض وحكوماتها ان تؤيد الرسل الذين يبشرون بالحرية والحق والمساواة كما تؤيد من يبشرون بالمحبة والرجاء والايمان . ويكون مجمل خطابه موجهاً الى ثلاث فئات من الناس فيخاطب الاولى معاتباً ويخاطب الثانية شاكراً

واما الثالثة الكبرى فيكلمها مذكرًا منذرًا .

واما العتب فيوجهه الى اولئك الفلاسفة الذين قاوموا النصرانية مدعين ان نتائجها مخالفة لما كانوا يعتقدونه خيرًا للجامعة وهم الدهريون والعدميون الذين طعنوا طعناً شديداً على الدين المسيحي . فلهؤلاء يقول يسوع « : يحق لكم انتقاد رؤساء الكنيسة ولا لوم عليكم ولا تثريب اذا خالفتموني في الظاهر واما مبادئنا الاساسية فواحدة . انتم تبشرون مثلي بالحق والعدل والمحبة . ولكن الحق الحق اقول لكم انكم تسلبون الانسان اكبر تعزية واعظم تسلية وتخطفون من نفسه كنز الرجاء والآمال بقولكم له ان الضريح خاتمة الحياة وان الموت رقاد ابدي . فاين ذهبتم بالحياة الاخرى ايها العلماء وكيف فاتكم ان النفس خالدة وان بعد الموت حياة اسمى وابقى . اجعلوا اسّ تعليمكم حقيقة الثواب والعقاب فاجتمع اذ ذاك واياكم في طريق واحدة ونبذل ما بوسعنا لتخفيف اثقال الحياة على الانسان . اما ما قيل لكم في العجائب التي صنعتها فلا يجب ان تكترثوا كثيرًا بها . ولا يجب ان يصدكم ذلك عن افتهام تعاليمي الاصلية المجردة من كل تنقيح وزيادة . خذوا الجوهر وانبذوا ما سواه ظهرياً . خذوا الأس وابنوا عليه وانا اقيم بمعاقل علومكم واكون ابدًا معكم . »

اما الفئة الثانية فهي مؤلفة من الفلاسفة الروحيين الذين ساووا بين تقوى الله وحب الانسان . بين القنوت والاحسان

بين العلم والايمان . ومع ذلك فقد خرجوا عن المسيحية بحسب عرف الكنيسة لان رؤساءها لا يرضون عمن كان جريئاً في الحق حريصاً على الحقيقة ولا يرتاحون لما يخالف اعتقاداتهم المنتحلة من الاقوال والاحكام . فلهؤلاء يقول :

« يعيرونكم بالكفر والالحاد ويضطهدونكم ظلماً وعدواناً فانا اقول لكم هكذا جرى لي يوم قمت على الكتبة والفريسيين واحييت روح الحق والمحبة بين الناس هم يبشرونكم بعذاب اليم وانا ابشركم بمقام سامٍ كريم فانتم الاصفياء وان انذروكم بالهلاك . انتم فسَّرتم آيات كتابي تفسيراً حقيقياً . انتم نددتم برؤساء دیانتي لما رأيتموهم يضطهدون ويقتلون بعضهم بعضاً . انتم خرجتم عن دائرة الكنيسة لما رأيتموها اصغر من دائرة اقوالي . انتم خدمتم الانسانية التي جئت لاخلصها خدمة مخلصة مجردة . انتم وضعتم النفس على كرسي عرشها ودفعتم عنها هجمات الدهريين وفيالق الجاحدين . انتم مارستم الناموس ونفذتموه باقوالكم واعمالكم . انتم جعلتم لابي في قلوبكم عرشاً معززاً كريماً ثم طفقتم تنذرون الضالين وترشدونهم اتقربوا الى قلوب الناس ملكوت السماوات انتم دافعتم عن الضعيف وسخرتم بالظالم الاثيم وحسرتم عن الرياء اللئام قد نبذتكم الكنيسة التي خانتني ولكن الحق اقول لكم انكم اقرب اليَّ واكثر اخلاصاً من الذين نبذوكم . انتم اتباعي المخلصون — انتم انصاري الحقيقيون . نعمة ابي في السماء تحل

عليكم . »

ثم يصوب المسيح سهام غضبه الى الملوك والامراء والرؤساء المسيحيين ممن يتخذون المسيحية ذريعة لتنفيذ مآربهم وتوسيع نطاق سلطتهم وتحقيق مطامعهم العديدة المنكرة . فيصرخ فيهم قائلاً :

يا ملوك الزمان ويا امراء البلاد وساداته . الحق اقول لكم ان مسيحيتكم فاسدة وايمانكم كاذب . انكم لاتختلفون عن الوثنيين الا بخبثكم وريائكم . فاولئك اضطهدوني وقتلوا رسلي ولكنهم أتوا ذلك جهراً واما انتم فانكم تعملون الان اعمالهم الفظيعة وتدعون الادعاءات الباطلة قائلين كذباً وافتراءً : ان ما نفعله من اجل المسيح ودينه . فتلحقون اثم الخبث باثم الاضطهاد . ان مطامعكم الدولية انستكم واجباتكم واماتت فيكم عواطف الشرف والصدق . ان الخبث والختل والقسوة في كل اعمالكم ظاهرة . ان حسد كم الدولي يجعلكم صغار النفوس كبار الذنوب فتتحاما كم الشفقة وتبعد عنكم الاستقامة . قد صيرتكم الانانية اعداء الداء لمن اوجد الجامعة التي تنتمون اليها . ان اثامكم العديدة الكبيرة التي تسترونها باسمي معدودة عند ابي في السماء . ان الشعب الضعيف الحقير يئن من الضرائب والمكوس التي ترهقونه لتقوموا بها بنفقات حروبكم الا تفكرون فيما تعملون . الا تخجلون من انتسابكم الى دين يعلمكم عكس

ما انتم فاعلون . ان انتسابكم هذا الباطل لا يجديكم نفعاً يوم الحساب

« فيا امراء البلاد ويا ملوك الزمان وساداته . قد بشرت منذ تسعة عشر قرناً بالسلام على الارض والرجاء الصالح لبني البشر فهل تفهمون بالسلام الحروب وهل تظهرون رجاءكم الصالح بمدافعكم القتالة ومدرعاتكم الهائلة . متى قلت لكم انشروا ديني بالسيف والنار . متى قلت لكم انهبوا واسلبوا وافتكوا واقتلوا باسمي . متى قلت اضطهدوا من خالف تعليمي واقتلوا من انكر لاهوتي وانبذوا من سخر باقوالي . ماذا تفهمون « بالآية الذهبية » التي تفاخرون بها العالم باسره هل عندكم للمحبة معنى سوى انكم تتصنعون بحب من يخضع لسلطانكم صابراً وينفذ اوامركم ساكتاً طائعاً . الا يردعكم الضمير عن الاعمال القبيحة التي تقترفونها وتقولون « ان ذلك من اجل المسيح » متى ياملوك الزمان متى تخلصون لسيدكم متى تطهرون الاسم الذي جعلتموه باعمالكم مرادفاً للظلم والجور والقسوة . انا بشرت بالمحبة وانتم تورون بينكم زند الضغينة . انا بشرت بالاتحاد العام وانتم من اجل لفظة تختلفون واحشاء جامعتكم تمزقون انا دخلت الهيكل و كسرت الاصنام واخرجت الصيارفة فعدتم انتم تعبدون البعل وتسجدون لعجل الذهب . قلت قاوموا الشر بالخير وانتم تنفون من انتقدكم وتقتلون من ندد باعمالكم

وتنتقمون من اعدائكم شر انتقام . فياملوك الزمان وسادة الارض . لا توغلوا في الاثم والعدوان ومن اجل العالم وحطامه لا تهلكوا النفس . كفاكم استبداداً وظلماً كفاكم رياء وخبثاً . كفاكم قسوة وجوراً . كفاكم تجبراً وطغياناً . اعدلوا فلا تحتاجون اذ ذاك الى جيش يحميكم ولا الى قلاع تصون بلادكم . حصنوا البلاد بالعدل ايها الحكام والرؤساء و كفوا عنها يد الظلم .



بيني وبين مدير الجريدة(*)

زحفت منذ عام على هذه الخواطر روح خفية . فطردتها من اعمدة هـذه الجريدة الاميركية . ارادت تلك الروح الاستئثار . فآثرت الخواطر على الحضارة القفار . وعلى الدخان النار . وسمت الى الطيران في الفضاء دون الاقـتراب من الكبار والصغار . هجرت قانعة وسارت رائدة . فكان للهاجر والمهجور بعض الفائدة والحقيقة الآن الى البيت المطهر عائـدة . العود اذاً الى الوطن المحبوب . فقد استتب فيه السلام المطلوب . وظهرت حسنات وسيئات تلك الحروب التي عززت بعض الحقوق ومكنت في النفس كثيراً من العيوب . ختمنا هذه الخواطر منذ عام بالنزاع

(*) الذي اوجب كتابة هذه المقالة هو ان احد المرسلين المارونيين في نويرك كان قد استاء من الخواطر التي كنت انشرها في جريدة هناك فدخل بيني وبين مديرهـا دخول الوسواس الخناس لذي يوسوس في صدور الناس كما يقال وما خالف في عمله هذا الوف اكثر اخوانه ذوي القلانس وبما ان صاحب الجريدة مقيد بقيود الملة اعار المرسل اذناً صاغية وأثار على نفس حرة نفساً باغية فنفضت عن اوراقي غبار الادارة وحبست عنها خواطري الى حين وكان هو من الخاسرين . وقد اعترف المدير بذلك بعد ان اختبر رجل الدين ووجد الفضيلة بعيدة عنه بعد الخائن الاثيم عن الصادق الامين فسألني اذ ذاك ان اعود الى نشر خواطري ففعلت بعد ان عقدنا محالفة جديـدة علماً مني بان الفوز لمن صبر وهذا والله تحرير الخبر .

والخصام . ونفتتحها الآن تحت ألوية الوئام والسلام . وهذا كل ما نكتبه سجعاً رفقاً بالقراء الكرام . فلا تجزع اذاً ايها القارئ ولا تخف . ان صاحب هذه الخواطر يعتبر الشريعة الى حد محدود ولا تلذ له الكتابة من وراء الحديد وهو يعدك بان حريته وحكمته تبقيان تالياً في القانون . فاذا كانت الحكمة تحبس الجسد الذي يحبس النفس فنحن في غنى عنها وعن توابعها . اجل قد يكفي هذه النفس القلقة حبس واحد .

اني احترم الشريعة ولا اتعشق الحبس وذلك لان الشريعة تمنحني بعض الحرية والحبس يحرمني اياها تماماً. فاذاً ما لا يملك كله لا يترك جله . ولكن ما العمل اذا جاءني صديق واراد ان يشاطرني هذا القليل او ان يحرمني منه كل الحرمان . افلا يصبح هذا الصديق كالحبس الذي لا اهواه . بل هو حبس لا حديد له ولا جدران . هو يريد ان يقيدني بارادته كما يقيد المأمور السجين هو يريد ان يحصر حريتي ضمن جدران مصلحته الشخصية . افليس اوفق والحالة هذه ان اسلم نفسي الى البوليس فارتاح من قرقعة هذا العالم ودويه من وداد ابنائه ومحبتهم ؟

الكاتب العربي خاضع لشريعة عامة وشريعة خاصة فالشريعة العامة تنال احترامي الى حد محدود كما سبق ولكن كيف التملص من الشريعة الصحافية الخاصة . يطلب مني صاحب هذه الجريدة وهو الذي يسن القانون وينفذه ان امتنع عن البحث في المسائل

الدينية وان اجرد هذه الخواطر عن كل ماتشتم منه رائحة الكفر بحسب زعمه ويطلب هذا مني اكراماً للاكليروس الذي يخدمه مضطراً – اكراماً لاولئك الذين حاولوا تقييد افكاري فنجوت منهم وشكرت ربي

الشريعة العامة لاتوجب سجن من يبحث في الموضوعات الدينية ورجال الشرطة لا تلقي القبض على من ينتقد لوثيروس او ينكر سلطة البابا فالشريعة العامة تعضدنا اذاً وتنصرنا على الشريعة الصحافية الخاصة . ومعلوم ان الخواطر هذه لا تحبس وان حُبس صاحبها وجل ما يستطيعه الصحافي ان يمنع دخولها الى مملكته فيوقفها في ادارة الجوازات (اي ادارة التحرير) ويعيدها الى حيث اتت مع الاعتبار الذي توجبه اللياقة والادب

ومع ان الحق في جانبنا (وضمير الجمع عائد الى الخواطر وصاحبها) فالشريعة العامة معنا وهي لاشك تنصرنا على هذه الشريعة الخاصة اذا التجأنا اليها فنحن نخضع للسلطة الصحافية المستبدة لا لنعلم الناس الطاعة العمياء الخبيثة بل لنعطيهم مثلا من هضم النفس الذي يجرد فاعله عن السفليات ويرفعه الى العلويات وهناك سبب آخر نهمس به في اذن القارئ وهو اننا لا نريد الحاق ضرر مادي بصاحب الجريدة . هو لم ينفض عن ثيابه بعد غبار السجن اذ اننا والشعور بالعهد اذا التجأنا الى القضاة وقد سبقنا ونادينا بالتساهل فلا نخطيء اذا وقفنا بجانب تعاليمنا وعملنا

بها ولو مرة واحدة في السنة

نعم ان بذل النفس حسن ولكن لا في جميع الامور وهو واجب ولكن لا في كل الاوقات والاحوال . هو حسن متى كانت نتائجه صالحة وثمرته ناضجة ومنفعته شاملة . هو جميل في قبول المسيح الصلب من اجل تعاليمه . هو حسن في شرب سقراط السم اكراماً لمبادئه التي كان يعتقد صحتها . هو حسن في قبول غاليلو الحبس وسبينوزا النار وهوغو النفي وجان برون الموت من اجل الحقيقة التي تعشقوها وبشروا بانجيلها وهضم الجانب حسن متى توقفت عليه حسم خلاف وازالة خصومة واسقاط المرء حقه جميل متى مهد سبيل التساهل والوفاق بين الناس . ومن حقوقي ان ابحث في اي موضوع اشاء فان تنازلت عن بعض هذه الحقوق فذلك حباً بالسلام والوفاق والتساهل

مهلاً ايها القارئ . فلا تلمني اذا تكلمت اليوم واسقطت حقي غداً . سكت مدة كما سبق عملاً بالمثل المشهور ولاسباب ذكرت بعضها فما الذي اوجب الكلام الآن . حادث جرى في العالم (وقلما يهتم لحركة الكون من كان في المستشفى بالقرب من اخت مريضة) حادث مزق حجاب السكوت واضطرني ان اؤجل التوقيع على المحالفة مع الدهر الى الغد .

ان عروش اوروبا خاوية خالية في الوقت الحاضر وملوكها منقطعون عن اعمالهم ترويحاً لانفسهم من الجمود المستمر الذي

يكتنفها . ومع ان نزهة الملوك لا تخلو من الالغاز والاسرار فهي لا تقلق ولا تزعج ومتى كان هناك امر ظاهر فلا حاجة لمعالجة الامور المدفونة والاسرار المكنونة واما الخبر الذي مس احد اوتار القلب فتحرك له الفكر طرباً هو ان الملك ادوار السابع رأس الكنيسة البروتستانية وحامي ايمانها المقدس سيزور البابا لاوون الثالث عشر في اثناء سياحته . هو خبر سارّ مفرح ولكنه لا يدهش — لا يدهش لان ترقي العالم الادبي والديني يجعل مثل هذه الامور طبيعية عادية معتادة . ولكن الخبر المناقض لمجرى الترقي الدائم . الخبر الذي يكدر بقدر ما ذاك يسر هو ان الاكليروس البروتستاني بعث الى ملكه رسالة برقية بها يحتج على تصرفه ويعترض على هذه الزيارة المهمة المفيدة .

فهل يتعجب القارئ اذا وقفت قليلاً في وسط الطريق لاقول كلمة صغيرة . هل الام اذا تكلمت اليوم وأجلت بذل حقي الى الغد ؟ فختامَ التعصب يا رؤساء العالم وعلام الاستبداد ؟ عفواً ان الرؤساء الحقيقيين العقلاء يميلون مع الزمان الى التساهل والموادعة والوئام ولكن الصغار المتزوين لا يرضون عن مثل هذا الترقي . الصغار المتزوون هم الذين يحتجون ويضجون ليشعر الناس بوجودهم .

كنت اظن ان الكاثوليك اشد تعصباً من اخوانهم البروتستان ولكن الخبر هذا افسد ظني وصرت اعرف في

المستقبل كيف ارتاب واشك . قلت ان زيارة الملك ادوار غير مدهشة ولكنها مفيدة اما احتجاج القس البرتستان فلا هو مدهش ولا هو مفيد . هو صفحة من تاريخ الاجيال المظلمة . هو برهان على تأثير الاكليروس حتى اليوم في الحكام المدنيين .

منذ نشوء الديانة المسيحية وبعبارة ثانية منذ تأسيس الكنيسة حاول رجال الكهنوت ان يتسلطوا على الملوك ويستخدموا قوة الجيش لتنفيذ مآربهم وفي هذه الايام يحاولون القبض على زمام الاحكام بواسطة المتشرعين المدنيين ولكن هل ينجحون ؟ هل نجح الاكليروس الانكليزي في سن شريعة تجعل المدارس العامة الانكليزية تحت رعايته وتدبيره ونفوذه . كلا . وهل يغني اعتراضه الآن على الملك شيئاً . كلا . نحن في تقدم من هذه الوجهة على ما يعترضنا من الطوارئ المكدرة . ان لاوون الثالث عشر مثال الحكمة والمحبة والتساهل فهل يخطئ ادوار السابع اذا زاره . ولو كانت تسمح الاصطلاحات الكنسية بالسياحة لرئيس رؤسائها الا تظنه يزور ملوك اوربا كافة على اختلاف مذاهبهم . بلى . وانا اظن ايضاً بان بعض المطارنة والكرادلة في قصر الفاتيكان يعترضون على صنيعه هذا كما اعترض قسس البروتستان على ملكهم . وذلك لان في الطغمتين اناساً صغرت نفوسهم فلا يرون ما يراه العاقل ولا يوازرون الحق على الباطل . وهم يعارضون ويحتجون ويضجون ليشغلوا الناس

بانهم في عالم الاحياء يرزقون • والذي قاله سيلستين عن البابا بونيفاس الثامن يطلق على مثل هؤلاء الرؤساء . فهم ايضاً يستولون على المناصب كالثعالب ويحكمون كالاسد ويموتون كالكلاب .



بين اللاهوتيين والعلماء

لما خرج العلماء الماديون على ما جاء في سفر التكوين . حمل علماء اللاهوت توراتهم وولوا مدبرين . ولما اكتشف علماء الجيولوجيا اكتشافاتهم اسرع فلاسفة الكنيسة الى تنقيح اعتقاداتهم . لما قال اولئك ان الارض لا تكوّن في سبعة ايام اجاب هؤلاء قائلين : وما ادراكم ان اليوم بعرف موسى لم يكن كناية عن الف عام . وهكذا تنازع الفريقان فافسد العلماء زعم موسى من حيث تكوين الارض وقام بعدئذٍ دروين فافسد زعمه من حيث تكوين الانسان . وهذا كله كان في سالف الزمان . واما اليوم فقد يندر النزاع بين العلماء واللاهوتيين لان اولئك الكرام مشغولون فيما بينهم وهؤلاء الاتقياء مهتمون باعداد طبعة جديدة منقحة لتأليف مار توما والقديس اوغسطينوس .

واما التوراة فلا بأس بها . لا بأس بابقائها على حالتها الحاضرة ومع ان الاباء اليسوعيين في بيروت قد طبعوا « الف ليلة وليلة » طبعة جديدة مطهرة فهم يستحقون الشكر اذ طبعوا التوراة بحرفها الواحد . واني لاقول لاولئك الذين يفضلون الطبعة المصرية الاصلية من قصة الف ليلة وليلة خذوا التوراة واقرأوا فيها قصة لوط وبناته . او قصة امنون وتامار . او قصة باعيل . او يهوديت او الحديث بين تامار الباغية ويهوذا . او قصة داود مع بتشابع

بنت ابيعام امرأة اوريا الحثي او قصة هذا الملك البار لما خطب ميكال ابنة الملك اشبوشت بن شاول بمئة قلفة ويالها من خطبة فكل من هذه القصص الغريبة الجميلة تليق ان تضاف الى الطبعة المصرية الاصلية من كتاب الف ليلة وليلة

ولكن مالنا وللتوراة الآن فقد قلت ان الماديين افسدوا زعم موسى من حيث تكوين الارض والانسان ولكن باستور افسد زعم الماديين بان الحياة تتركب من المادة وجاء اخيراً الدكتور سيمون ليفسد زعم باستور . يقول هذا النطاسي الاميركي ان الحياة تتألف من مركبات كيماوية وان الخلية الحيوية الاولى (بروتو بلازم) هي وهم كبير وافتراض فاسد . وان دروين في خطأ مبين حيث ينصر هذا الرأي وان المرء ليقدر في المستقبل ان يوجد مادة آلية على نحو ما وجد هو . وان للمعادن حافظة تحفظ التأثيرات كما الانسان . وان الحياة هي نتيجة حركة كيماوية فقط ومتى اختلت ميزانية الجواهر الكيماوية يضعف التأثير الكهربائي ومتى ضعف هذا وزال تماما يكون الموت . وان الجاذبية الكائنة بين بعض الجواهر الكيماوية هي نوع من الادراك العقلي اذ انها تنتقي رفيقتها وتتآلف حسب طبيعتها وخاصيتها ولا اوضح وابسط من هذه المسائل . ومتى يا ترى تنطق الجواهر الكيماوية ؟ لي حديث مع النملة فحبذا لو تكلمت لتفسد زعم هؤلاء الماديين الذين يظنون مصدر النفس البشرية في مزيج من

الملح والصابون

ولكن قد خرج من معسكر الماديين في المانيا فرقة كبيرة خرجوا لينازلوا علماء الانكليز القائلين بالنشوء والارتقاء وبقاء الانسب . نعم من بيت ابي ضربت . هذا هو لسان حال تلك العقيدة التي تعزز القوة في العالم وتقتل في الضعفاء الرجاء . نعم ان علماء الالمان يحاصرون الآن بمدرعاتهم قلاع علماء الانكليز . وقد غنموا الفرصة يوم مات الدكتور فيرخو ذاك الذي ضرب العقيدة هذه ضربة قاضية فنسفوا اعظم مدرعة انكليزية واغرقوها وتدعى هذه المدرعة في تاريخ الطبيعيين شارلس دروين

يذكر القارئ ان دروين هذا صرف معظم حياته الطويلة ليسر الينا اخيرا باننا قرود مترقية وان اجدادنا الاولين احياء حتى الآن ويقدر الواحد منا ان يراهم في بورنيا او في احدى الحظائر المشهورة ولكن الدكتور فيرخو يؤكد لنا ان دروين لم ينجح الا بالخلط والخبط والشطط والغلط . قد يصرف كمية وافرة من الحبر والقرطاس في هذه الحرب العلمية التي لا يرى العاقل فيها شيئاً يستوجب الاهمية

وقد فتحت كتاب حكمتي في هذا الصباح -- وكتابي ايها القارئ يختلف نوعاً عن سفر الجامعة -- وقرأت في الوجه الاول منه لا شيء مهم في العالم سوى الصحة والعقل والبشاشة وتنازع العلماء بعضهم مع بعض مثل تنازعهم مع اللاهوتيين يبلبل الفكر

ويقلق الراحة . فاذا استحسنت حكمتي واستصوبتها فحافظ على جواهر الحياة الثلاث الثمينات اي الصحة والعقل والبشاشة ولا تحفل بامر مجيئك ومصيرك . لا تحفل اذا عرفت من اين اتيت ومن هم اجدادك .

ولكن الطبع البشري لا يميل الى السكينة ولا يقنع بالراحة . الانسان يتطلب ابداً شيئاً يشغل الفكر ويجلب الهم . فاذا كان لا بد اذاً من اهتمام الفكر بشيء دعنا نهتم بالحاضر او المستقبل لا الماضي . الى اين ذاهبون ؟ متى عرفنا ذلك لا يعود يهمنا معرفة من اين اتينا . ولكننا لا نعرف حتى الآن شيئاً عن الامرين فالاوفق اذاً ان نهتم بالحاضر الحاصل ونترك مسألة نشوئنا الى درْوين او الى موسى ان كنت من الاتقياء ومسألة مصيرنا الى القديس اوغسطينوس او الى الاستاذ هكل اذا كان يحلو لك الفناء .

ومن الحقائق الثابتة ان كل عقيدة تبتدئ بالبدعة وتنتهي بالخرافة تبتدئ بالاضطهاد الذي يجيئها من الخارج وتنتهي بالاهمال الذي يأتيها من الداخل . وعقيدة النشوء والارتقاء التي ارتعدت لها فرائص الاكليروس عند اول ظهورها أخذت الآن بالتغير والترقي . وترقيها هذه المرة الى اسفل لا الى اعلى . رجل آخر مثل الدكتور فيرخو وتصبح العقيدة هذه من اساطير الاولين .

اما العقيدة فجميلة في ذاتها لانها تشرح كل شيء وتفسره

تفسير الماء بالماء ولكنها لا تبرهن على شيء برهاناً حسياً ولم يقدر واضعها ولا احد من غلاتها ان يرينا كيف يترقى الانسان من حيوان كما ترينا الطبيعة كيف تنشأ الفراشة وتترقى من زيز الشرنقة . البرهان الحسي الذي يحملنا على تأكد نشوء الفراشة من الزيز هو بعيد عن عقيدة النشوء والارتقاء التي طعنها الدكتور فيرخو بمديته فاغمى عليها .

وللعقيدة فضيلة اخرى تؤهلها للموت وهي ان الاوليات فيها مخالة فهي تنسب اصل هذه الحياة البشرية ضمناً لا تصريحاً الى التولد الاختياري والتكوين الذاتي . وهذه من الفقاقيع التي اخذها باستور وظل ينفخ فيها حتى فجرها ولا تهمني اكتشافات الدكتور سيمون من هذا القبيل فهو اميركي وكفاه بذلك تعريفاً ولم يقم احد من الدرونيين بعد باستور وفيرخو ليلم شعث العقيدة المشهورة ويركبها ثانية الا الدكتور هكل الالماني وهكل هذا من الالمان الذين يحسنون الهزل فهو يريد ان يسلي الشعب الالماني ويلهيه اذ رأى حالتيه الصناعية والتجارية في اضطراب وتقهقر فلا لوم عليه اذا طفق يضرب على طنبور دروين وينفخ في فقاقيعه « القردية »



ما هي السعادة

ما هي السعادة واين هي . هل هي في الاعمال الصالحة . هل هي في الحياة النقية التي يعيشها افراد قلائل . هل هي في الصداقة المجردة الحقيقية . هل هي في الاعتزال والوحـدة . هل هي في الثروة او في الصحة او في الشهرة والمجد . او هل هي في الحب الجنسي والعيشة العائلية الصالحة . فان لم تكن في احدى هـذه الحسنات او السيئات فأين هي اذاً . هل هي في القبر او هل هي خيال يزورنا في المنام ويختفي قبل ان يقول عليك السلام ؟ لا يا صديقي ان السعادة منتشرة في العالم انتشار الهواء ولربما قلت لك ان السعادة هي ان تتنشق من الهواء النقي بقدر امكانك وان تمشي في البرية بضع ساعات كل يوم وان تستحم في كل بحيرة تصل اليها لتصبح صحتك كصحة الذئب او العجل على الاقل . ولكن هذه وسائل حسنة فقط . هي طرق مستقيمة تؤدي الى السعادة باقرب ما يمكن ان يصل اليها احد من البشر .

اما السعادة بالذات فهي اتقان الصانع صنعته والتوفر عليها السعادة هي في العمل ولا سيما العمل الذي يتطلب اجهاد الفكر والاختراع . السعادة هي اللذة التي يجدها الانسان في اتمام عمله على غاية ما يمكن من الكمال . هي اللذة التي يجدهـا المصور في صورة يصورها . والنقاش في تمثال يحفره . والشاعر في قصيدة

ينظمها . والكاتب في رسالة يؤلفها والموسيقي في لحن يبتكره . والعالم في اكتشاف حقيقة علمية جديدة . والاسكاف في حذاء يصنعه والخياط في ثوب يخيطه والفلاح في حقل يحرثه ويزرعه ويحصده وقس على ذلك .

كل صنعة يتخذهـا الانسان هي شريفة مقدسة بشرط ان يتقنها بشرط ان يتابعها بنشاط واستقامة وحكمة وحذق وحماس وعندي ان النجار الذي يصنع مكتبة جميلة مثلاً هو اشرف من الاديب الذي لا يحسن عملاً مفيداً . الاديب الذي يحتقر الاعمال اليدوية ويحمّل نفسه اثقال الهيئـة الاجتماعية فيفادي بهجته خدمة للانسانية . خذ لك صنعة شريفة واتقنها ما استطعت ومارسها باستقامة وقناعة وثبات فتستغن عن السعادة الفاسدة التي يطلبها جمهور الناس — السعادة التي ينهك الجاهل قواه في الركض وراءها ويموت اخيراً وهو بعيد عنها .

* * *

كتبت هذه الفقرة ونشرتها فورد على الجريـدة من القراء ردود عديدة فيها كثير من الاعتراضات الفارغة والاحتجاجات السخيفة . واما الذين قالوا قولاً معقولاً فاثنان احدهما صحافي معتزل والثاني قسيس جوّال . ولا شك عندي ان الصحافي اعتزل الصحافة ليقترب من السعادة والقسيس خرج من ديره ليفتش عليها في العالم . وبما ان مهنة الكاهن خارجة عن دائرة الفنون والصنائع

المفيدة جاء اعتراضه في محله اذ قال : ان السعادة الحقيقية هي التي يتحد فيها الانسان مع خالقه . هي قائمة في الصوم والصلاة والقنوت . وغير ذلك من المتاجر الدينية التي يتاجر بها رؤساء الاديان ولو فكَّر حضرة القس وسبر بمسبار النقد الناموس الذي اشرت اليه لأيقن بانني اوافقه بالحرف اذا كنا لا نتفق بالروح . يعجبني كثيراً اتحاد الانسان مع خالقه . ولكن لو سُئلت وسُئل القس المحترم عما نفهمه بالخالق لما كنا نرى ونسمع بعضنا لما يكون بيننا من بعد المسافة .

انا روحي ولست مادياً . اني ارى في كل ما حولي من الطبيعة شيئاً من الجوهر الالهي الذي نسمي مصدره الاصلي الهاً او خالقاً و كلما ترقى الانسان ازداد في عينه الجمال الطبيعي المحيط به . وكلما درس الحكيم الطبيعة قرب من الناموس الرئيسي السائد في كل جزء منها وهذا الاقتراب من الناموس هو ما اسميه ويسميه القس المحترم ايضاً « اتحاد الانسان مع خالقه » .

واما الصحافي فيظن ان تعريفي للسعادة ناقص اذ قلت انها قائمة في اتقان الصانع صنعته ومزاولته اياها بصبر وجلد وسرور . بحذق وقناعة وحكمة . واللبيب الذي يفكّر قليلاً ويقرأ ما يتخلل السطور يرى ايضاً انني كدت انكر وجود السعادة في العالم بعد ان فتشت عليها سنين عديدة بالفتيل والسراج . كدت اقول مع المراسل الفاضل : السعادة « على فرض وجودها » هي

كذا وكذا . ولكنني وجدت بعد ان فتشت حولي ان السعادة الحقيقية هي التي تنشأ وتنمو في الداخل — في الروح . انا اكتب فيما اختبرته فقط واذا طابقت اختباراتي اختبارات الغير فلهم ان يستفيدوا بها اما بالاقتداء واما بالحياد . لو اجهد المرء نفسه في جمع المال وافنى حياته في احتكار صنف من البضاعة حتى يقال عنه اخيراً انه « ملك السكر » او « ملك الفحم » او « ملك القطن » ايكون يا ترى سعيداً . ولو اصبح اغنى من روتشيلد او روكفلر وكانت معدته ضعيفة ورئتاه معتلتين أيكون يا ترى سعيداً . ولو كان صحيح الجسم والعقل وكثير المال والنشاط ولكنه خال من الشفقة والمحبة والحنو ايكون يا ترى سعيداً . لو كان غنياً في آدابه وفي صحته وماله وفقيراً في الفضائل التي هي دعائم العائلة ايكون يا ترى سعيداً . اني اتفق من بعض الوجوه وذاك الصحافي في ما قاله عن بساطة العيش وسذاجته . ولكنني انكر ان المجد والشهرة والعظمة لا تأتي ابداً عن طريق الحياة البسيطة التي تزينها القناعة وتكللها التأملات الروحية . من كان قنوعاً في حياته من الفلاسفة والحكماء كان ولا شك سعيداً .

انا قنوع من جهة مادية ارضية ولكنني غير قنوع من جهة روحية سماوية . روحي تطلب اكثر من معدتي في الاحايين . وعقلي يطلب الآن اكثر من حواسي . وبما ان كلامنا هو عن السعادة الحقيقية الروحية يجب ان نتكلم عن الفلاسفة والحكماء

اذ لا سعادة حقيقية الا في الحياة البسيطة النقية التي عاشوها
ويجب ان نذكر بان في العالم طبقة كبيرة من البشر ممن
لايفكرون ابداً في السعادة . هؤلاء الناس يكدون ويأكلون
ويناموَن كاجدادهم الذين عاشوا في العصر الذي عاشت فيه
الحلقة المفقودة

المجد الذي يجده القائد في انتصاراته زائل . والشهرة التي
يتطلبها الكاتب زائلة . والسعادة التي يجدها الفتى في ماله لاتدوم
والسعادة التي يجدها الفقير في قناعته ومحبة اهله هي سعادة كاذبة
ضيقة النطاق تزول اذا صار الفقير غنياً او تنتهي الى الذل
والعبودية اذا ظل فقيراً . والسعادة التي يجدها العاشق في عشقه
هي غالباً سم قاتل . ان طريق المحبين ملطخة بالدماء . واما السعادة
الحقيقية فهي التي يجدها الصانع في صنعته على الاطلاق . اي
ان المصور مثلاً يلتذ في صورة جميلة صوّرها ولكن لذته هذه
ايضاً لاتدوم فلربما شغف المصور بصورته مدة اسبوع اواسبوعين
او شهر او شهرين ولكن متى زالت هذه العاطفة زالت السعادة
فعليه اذاً ان يداوم العمل — ان يلاحق التصوير — ان يصور
صورة اخرى لتبقى لذته في عمله متواصلة . وهذه اللذة المتواصلة
هي عندي السعادة بعينها

اني اعرف حق المعرفة ما في الحب الجنسي من اللذة . فلا
تحدثني عن النساء . بل قل لي لو داوم المحبون التواصل كما يداوم

المصور التصوير او الشاعر النظم ماذا يا ترى تكون النتيجة

وماذا يعني المعترض في قوله ان تنازع البقاء ينفي القناعة والزهد وشظف العيش . وماذا يعني في قوله ان جهاد الحياة وتطلب المعالي يقفان في طريق من عاش عيشة الزهد . ألم تأت الشهرة اولئك الفلاسفة الذين ذكرهم رغم قناعتهم وعيشتهم البسيطة الفلسفية . قد وجد اولئك الحكماء سعادتهم في عملهم لا في نتيجته المادية . وجد ملتون قسماً كبيراً من السعادة الارضية في نظم تلك القصائد الشائقة ولكن بيعها الى الطابعين ما كان الا ليكدره ويحزنه . نسي ملتون همومه اثناء نظمه ولكنه لما انتهى من قصيدة « الفردوس المفقود » وباعها بقيمة زهيدة من المال — بخمس جنيهات فقط — عاد فنظم ونظم ونظم وهكذا كان يسلي نفسه في عمله لا بنتيجته المادية . كان يقاتل الدهر في مداومة النظم والابكار . وهكذا قل عن ابي العلاء وكثير من الشعراء

يظهر لي ان الصحافي المعتزل مهتم كثيراً بجمع المال في هذه الايام ولذلك يكثر من ذكر الارباح الطائلة والجهاد في الحياة اما انا فلا ارى في مواصلة مثل هذا الجهاد شيئاً من الحكمة . والغاية من الحياة هي اسمى من ان نحددها بالدرهم والدينار ونحصرها بالاصفر الرنان والدولار . ان الغاية الفضلى من الحياة هي ان يعيش المرء باتفاق تام مع الطبيعة ونواميسها . وماذا

تجلب المعالي الدنيوية غير المجد الباطل . فلنطلب العلاء الذي تتطلبه النفس — العلاء الذي يجعل الانسان مدركا ما في الطبيعة من المناقضات والمؤتلفات — من البشريات والالهيات — العلاء الذي يهمس باذنك انك قسم مفيد من هذا الكون العظيم مهما كانت منزلتك منه ومكانتك في اهله

ان تمدننا الحالي متوقف على مداومة العمل ليل نهار ولكن بعيشك قلْ لي ولمَ هذه الحركة الدائمة ? هل فيها قيراط من السعادة الحقيقية اذا نسبت الى واحد في الالف من الفقراء الذين يكدّون ويجاهدون ويعرقون دماً ليحصلوا معاشهم ? هل فيها قيراط من السعادة الحقيقية لاولئك الاغنياء الذين يجمعون الاموال الطائلة ويموتون في الجهاد بائسين

انا اكره كل هذه الحركة كرهاً شديداً . التمدن الحالي يمنع الناس من ان تفكِّر وتأكل وتنام على ما يقتضي . وعندي ان نظام الاسبوع يجب ان يتغير كل التغيير — يجب ان يقلب ظهراً لبطن . يجب ان نخص يوماً واحداً بالعمل وستة ايام بالراحة . وليست الراحة التي اطلبها راحة الفيل وهو نائم في فيْ صخرة في الصحراء . بل هي الراحة التي يجدها الفيلسوف في درس الطبيعة وفي التأمل — هي الراحة لا بل السعادة التي يجدها الشاعر والحكيم والمصور والنقاش والعالم في دروسهم وابتكاراتهم . هي الراحة التي تمهد السبيل الى ما وراء هذا الكون . الى العوالم غير

المنظورة — الى الله

السعيد من جعل فكره مرآة للطبيعة · السعيد من عاش حياة فكرية روحية حسية شعرية لا حياة ارضية مادية محضة هذا هو الرجل الغني بالعقل والروح . هو يعطيك مال العالم باسره لو ملكه ويخرج الى البرية ليمتع هناك بكل ما اعدته الطبيعة لبنيها الروحيين . انا اذا مشيت تحت المطر اعتبر كل نقطة منه مرسلة لي وحدي فاقتبلها بيد الروح واعيدها بذات اليد الى الارض والى البحار التي اعود انا اخيراً اليها . وبيد الروح اصافح الآن القارئ اسكافاً كان او شاعراً واسأله ان يذكرني ساعة يضع جانباً ادوات صناعته وينظر الى عمله بعين الرضى والسرور والابتهاج .



بيتان للمتنبي

قال ابو الطيب يمدح سيف الدولة

نهبتَ من الاعمار ما لو حويته   لهنئت الدنيا بانـك خالد

ومَن مِن الادباء والشجعان لايعجب بالمادح والممدوح لمـا كان في هذا من البسالة وفي ذاك من الذكاء . ومن منهم لايكرم الاثنين ويعظهما لو قرنت بسالة الواحد مع الحلم وذكاء الثاني مع الفضيلة وان قلنا ان ذكاء المادح بعيد عن البشريات فبسالة الممدوح بعيدة عن البشريات وعن الالهيات ايضاً . ولذلك نود الا يقتدي ارباب الرجولية من الملوك بسيف الدولة وان لا يقتفي نوابـغ الشعراء اثر المتنبي . اذ ماذا ينفع الذكاء الذي يستخدم في المجاملة والتدليس والمداهنة . ومن يأسف على تلك العقول التي تحرق في المجامر مع البخور على مذبح الظلم لتمجيد الظالم ومـدح مظالمه . فلو قطع سيفُ سيف الدولة عنق الذكي الذي يحـاول قتل الحقيقة بذكائه لاستحق اذ ذاك مديح الشعراء الصادقين .

ولمعترض ان يقول :

ان في شعر المتنبي الذي ترويه بعض الحقيقة فقد قطع سيف ذلك الامير الالوف من الاعنـاق التي لو جعلت بعضها فوق بعض ووقف هو عليها صار راسه بين النجوم خالداً ولكن مَن من البشر يتمنى الخلود لوحش مفترس ومن منا يود لو كان الجزار

في العالم المآ . ومن منا يصدق اولئك الذين يتبعهم الغاوون

اما المتنبي فلذكائه عندي من الاعجاب ما لشخصه من الاحتقار لان الرجل الذي تخصه الطبيعة بقريحة وقادة فيضرمها اتوناً ليحرق فيه عرائس الحقيقة والعدل لا يستحق ان يدعى رجلاً حقاً

والذكي الذي يزحف ويدب تحت غبار الظالم الاثيم يجحد نعمة اله السماء واهب الذكاء . ولا تظنني اول من آخذ المتنبي بذلك فقد نظر ابو بكر الخوارزمي قبلي الى تناقض حكمته وتفاوت طرفي فعلته ومما قاله فيه « ويخلع خلعة من نظمه تساوي بدره على عرض لا يساوي بعره » وهنا يجب ان انبه القارئ الى مبالغة ابي بكر وشدة ولعه بالجناس والتوشيح والتدبيج فاذا عرف ذلك يضرب عن « بدره وبعره » صفحاً وقد قال ايضاً عن المتنبي « ويزف كريمة من كرائم شعره الى من لم تقم عنده كريمة (وولعه بالتوريات اشد من ولعه بالسجع والترصيع ولم تعرف له قيمة . . . لو رأى الطمع في حجر فاره لدخله ولو اتاه الدرهم من است كلب لما غسله » الى آخره من القول العنيف السديد الشديد

وعندي ان العقل كالمرأة من احدى وجوهه . والاستقامة له كالطهارة لتلك المخلوقة المحبوبة ويجب ان يلازمه الصدق [illegible] يجب ان تلازمها الطهارة . ومتى تجرد الاثنان عن تينك الفضيلتين

تصبح المراة مومسة والعقل قواد . ولا لوم على المومسة التي تعرض جسدها على الناس اذا اضطرتها الى ذلك الحاجه واما الشاعر الذي يتاجر بذكائه مغضياً عن الحقيقة والعدل فحبل من مسد اشدده في عنقه والحقه بابي لهب . اجل ان العقل الذي يدنس في اوحال التدليس والكذب ما هو الا متاعاً ينادي عليه صاحبه بالمزاد . قد تعذر والله البغي لان الحاجة غالباً ترميها خارج البيت والفقر يبقيها في الشوارع واحتقار الناس اياها يعدها في طغيانها ويبعدها عن النور . والشرائع لا تبدد من حولها الظلمة بل تزيدها في اعم حالاتها ظلاماً . ولو خصتها الطبيعة بارادة قوية وروح سامية لعادت ولا شك عن غيها . بيد ان الشاعر الذي يبيع ذكاءه بدرهم . الشاعر الذي لا يخدم الحقيقة ولا يذب عن الحق . الشاعر الذي يخلع عن عقله ثوب الاستقامة وعن نفسه حلة الابوة وعن قلبه رداء الصدق ما قولك به ؟ ما قولك بهذا الجربز المتمخرق العريان أعدت المشنقة لسواه ؟ او يعد من الحكماء من قال ايضاً :

لايسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدمُ

فحبذا لو حذف هذا البيت من ديوان المتنبي حبذا لو عدل الشعراء والكتاب والخطباء عن التمثل به والعود اليه . حبذا لو امعنا النظر قليلاً في الاشعار التي نستشهد بها والحكم التي ننقلها ايجب ان تكون شرائعنا الادبية اليوم كشرائع اجدادنا الناقصة ؟

اصحيح ان الشرف لا يسلم ولا يتعزز الا اذا لطخ بدم بشري ؟ اذا كان كذلك فانا في غنى عن مثل هذا الشرف . اذا كنت لا استطيع المحافظة على شرفي الا بسفك الدماء فانا لا احافظ عليه . خير لي ان اعيش مجرداً عن ذاك الشرف الموهوم من ان يموت فردٌ من بني الانسان بسببه .

فكِّر قليلاً فيما اقوله . ان الشرف المتعارف عند الناس نصفه فقاقيع واوهام ونصفه خيال واحلام . ومعلوم ان فقاقيع الصابون كلما كبرت دنت ذراتها الى الانحلال . والخيالات كلما امتدت اشرفت على الزوال . فيجدر بنا ان لا ننفخ شرفنا فيزول او نعكس عليه من الجانب نور الوهم فيمتد الخيال فنظن انفسنا كباراً . وهناك حقيقة اخرى لا اكتمها القارئ وهي ان الشرف الذي يعتبره سكان القارات الشمالية مقدساً يعد عند سكان القارات الحارة اضغاث احلام فالاوروبي او الاميركي او السوري الذي لا يدافع عن شرفه وعرضه في اية ظروف كانت يعد جباناً ويوصم بوصمة العار ولا يدفعه الى ارتكاب الجريمة مدافعة عن عرضه وشرفه الا الخوف من التعيير — الخوف من القيل والقال الخوف من تقبيح الناس به واحتقارهم اياه . وهذا هو نفس الخيال الذي نخشاه . وكلما كبر الخيال ازداد خوفنا لا من الاثم فقط بل من الغضاضة والعار .

يقول ثقات المسافرين اننا كلما قربنا من خط الاستواء قصرت

الخيالات بسبب استقامة اشعة الشمس ففي جاوه مثلاً يسير الغزال والايل او الاوروبي او السوري في نصف النهار مطلق الحرية ولا يخجل من ظله او يخشاه على انهم اذا توجهوا نحو الشمال تظهر هناك الظلال وتكبر الاوهام وهناك البكاء على الشرف الملطخ بالدماء هناك الخوف من الغضاضة والعار الموهوم . ومن القال والقيل ومن ظلم الرأي العام وصولته ٠

نعم كلما تقدمنا شمالاً ازداد الخيال طولاً — والخوف من هذا الوحش المفترس اي الرأي العام يشتد بقدر ما يمتد الخيال . هذا هو السر في المسألة لا اكثر ولا اقل

فالذي يخاف خياله اذاً لا يلام اذا تمثل بقول المتنبي الذي افتتحت به هذه الملاحظات وليعلم القارئ انني اسكن بعقلي بالقرب من خط الاستواء فلا خيال هناك اخشاه ولا اصطلاح يضطرني الى تلطيخ شرفي بدماء بشرية فان اراد مجاورتي ينبغي له ان ينبذ حكمة المتنبي ظهرياً ويتمثل بحكمتي



مكروب الغيرة

جاء في نشيد الانشاد ان المحبة قوية كالموت والغيرة قاسية كالجحيم ٠على ان الحب الذي يولد مثل هذه الغيرة هو ناقص الجهاز فاسد الجوهر ٠ هو حب دبلي عضلي لاتتصل جذوعه بتربة الروح الازلية بل بسماء النفس الالهية . وان الحب الذي يصفه الحكيم والحب الذي يهز عامة الناس وخاصتهم لشرع من هذا القبيل . واما الفارض وحبه السري وجلال الدين الرومي وحبه الالهي ودانته وحبه السماوي فامثال هؤلاء يعدون على الاصابع ومع اننا نترنم بشعرهم فتسكرنا نشوة غرامهم فان بين حياتنا وحياتهم شعاباً ووهاداً . من منا لايقرأ ابن الفارض ولا يروي شيئاً من شعره كم منا يفهمه ويدرك كنه هيامه ومن من الناس لايختبر بنفسه صدق قول سليمان الحكيم عند ماتستولي عليه الغيرة

ولكن حين يتحقق ذلك تتجلى له حقيقة اخرى اقسى من الاولى واشد وهي ان ساعة تخامر الغيرة القلب يأفن الحب ويذبل ويضمحل . فلا تكاد زهوره تنور في تلك الربلات الناعمة حتى تسوس جذوره في العضلات المستحجرة . لا انكر ان البضعة المكتنزة لاطيب من البضعة المسترخية وان الوجه الوسيم القسيم لاقرب الى صورة الله من الجهم الدميم . ولكن في الحالين الساق المجدول يبجبج ويزول وحسن الوجوه حال يحول

الحب المادي اذًا هو ضرب من الحمى التي يتلوهـا البرد والارتعاش . هو هوى وولـه يتبعهما تثاؤب وقرف . هو دبيب نمل في الجلد ان ازاله الحك والفرك شهرًا تخلفه القروح والاورام دهرًا . وهذا هو الحب الذي ينتج الغيرة القاسية كالجحيم . على ان كل مظاهر الطبع البشري وفي كل الانفعالات النفسانية لا شيء يماثل هذه العاطفة الحيوانية ويضاهيها الا اذا استثنينا نهمة الكسب والاثراء في ابناء هذا الزمان فالغيرة في نشوئها وتجسمها وفي هولها وفظاعتها هي ام العواطف الحيوانية المحضة التي تنقطع فيها المواصلة تمامًا بين قوة الادراك والمجموع العصبي . هي العاطفة التي تحلل خرق وصية الله الخامسة تعزيزًا لوصيته السادسة والشريعة اليوم تؤيد جانب الغيرة وتعفو عن صاحبها الذي يتمثل بقول المتنبي

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

ويعمل بموجبه في ساعات الظنون والجنون .

وكم من شاعر وقع في اشراكها . كم من عالم أخذ في احابيلها كم من كاهن تاه في ظلماتها وخسر نفسه في موبقاتها فعاد الاول وهو يصفها لنا وصفًا بليغًا وجاءنا الثاني وهو يبحث في اسبابها وعلاتها ونتائجها وتصدى الثالث للوعظ فنهى وحذر وتوعد وانذر . ولكنها لم تزل اليوم كما كانت يوم كتب نشيد الانشاد فهي تستحوذ على الشاعر والعالم والكاهن كما تستحوذ على

الفـلاح والنوتي وراعي الغنم وكما استحوذت على سيدنا داود وابيه سليمان في غابر الزمان .

ومن الامور المدهشة المحزنة هو ان العلم لا يلطف مفعولها ولا التهذيب يوثر فيها تأثـيراً حسناً ولا سمو العقل والادراك يزيل شيئاً منها ففي المغرب باسره لم يأتنا التاريخ قديمـاً وحديثاً بنبأ يسر من هذا القبيل ولا اذكر الا حكيماً واحداً انتابه مثل هذه النوبات العصبية بسبب نشوز امرأته وشرودها فملك ذاتـه وحكم عقله في الامر لا قلبه وسرّح المباركة تسريحاً حسناً دون ان يعضلها فتزوجت اذ ذاك من احبها واحبته • والحكيم هو الكاتب الانكليزي الشهير رُسْكِنْ وقصته مع امرأته والمصور الذي استغواها مشهورة فبدل ان يسترسل في الغيرة والظنون والحقد والقلق اصاخ الى صوت الحكمة التي هو من امرائها وفتح لامرأته الباب ولسان حاله يقول اخرجي بسلام . اذهبي وعيشي واياه متعكما الله واملا لكما . ولكن رُسْكِنْ من هذه الوجهة فرد منقطع النظير وعمله من الشواذات الجميلة التي تتمجد بها الحكمة وتود لو صارت قواعد شاملة مطردة .

وان ارجح الناس عقلاً واثقبهم رأياً واسماهم ادراكاً لتتغير اخلاقه ويذهب لبه سدى فيفسد في الهيئة الاجتماعية ساعة تستعبده الغيرة . وقليلون في اوروبا واميركا الذين لا يجترحون السيئات ويجنون الجنايات عند ما تنتابهم هذه النوبات الدموية

الخبيثة فتقذف بهم الى ضفة ارض خيالية ليسمعوا هنالك اصوات اشباح الشرف والحمية تحثهم على القتل وتطالبهم بالثار والانتقام . ولا اظن هـذه الاشباح سوى اشباح شرف وهمي وحمية غير بشرية . انها والحق يقال خيالات ذواتنا الحيوانية وقد هاجتها حمية جاهلية . والظاهر ان في كل منا كلبا كَلِباً يفلت من وجرد بعض الاحيان فيخجلنا ويذلنا ان لم يمزقنا ويقتلنا . وقـد اعرب الشاعر شكسبير عن شعور كل انسان من اقصى المغرب الى اقصى المشرق اذ قال :

اني لأفضل ان اكون ضفدعاً واتغذى من ابخرة الارض وعفونتها على ان اكون انساناً وأبقي زاوية للغير في من احبه .

فالفلاسفة يدعون الناس الى الحكمة والتعقل . والمتشرعون يسنون الشرائع لردع الانسان وكبح جماحه . والعلماء يحذرونه من الاسترسال في الاشياء ويحببون اليه الاعتدال . على ان ذلك كله لا يغني من الغيرة شيئاً . اللص يزج في السجن جزاء عمله والقاتل من اجل ثروة او مطمع دنيوي او لداعٍ ما غير داعي الغـيرة يكبل بالحديد وتنصب له المشنقة فيحرم من حياته ولا احد يرفع من اجله صوت الشفقة والحنان بيد ان القاتل غيرة ودفاعاً عن شرفه وعرضه يقف امام القضاة عزيزاً كريماً فتنسخ من اجله مـا سن من الشرائع في ما مضى من الاجيال . وينسى المحكمون انهم قضاة عدل وحق وانصاف فيتساءلون ويذكّرون وما منهم

الا وله ابنة او اخت او ام او امرأة .

ألم يجنِ هذا الجناية غيرة ودفاعاً عن عرضه . بلى . اذاً فليعفَ عنه . كذلك تتعزز الوصية السادسة وتمتهن الخامسة التي هي اهم واكبر . وانه ليتعذر وجود عشرة رجال في اوروبا او في اميركا يدعون " جوري " او محكمين ليقتصوا من مثل هذا الجاني بحسب الشريعة الوضعية وبموجب نص الاحكام الجزائية . ولا اذكر ان محاكم نويرك في مدة العشر سنين التى كنت اطالع فيها اخبار مثل هذه الدعاوى حكمت مرة على واحد من هؤلاء المجرمين بالاعدام . وكثيرون هم هناك وكثيراً ما كنت اطالع اخبارهم المؤلمة المزعجة حباً بدرس هذه العاهة في الطبع البشري واذكر انني حضرت مرة محاكمة رجل اطلق الرصاص على قسيس هتك ستر امرأته وانتهك عرضها . فشكت المرأة القسيس لزوجها وكان ما كان من اطلاق الزوج الرصاص على الباغي ومن نشر الفصول الضافية في الحادثة في صحف الاخبار . وحضور المرافعات في الدعاوى الكبيرة في تلك البلاد مثل حضور الروايات التمثيلية يسلي ويفيد ومتى كان في مثل دعوى هذا القسيس فيضحك ايضاً . وحقاً اني دهشت لما دخلت المحكمة في اول يوم المرافعة ووجدتها غاصة بالنساء والقسس ثم تحيرت اذ رأيت القسس كلهم واجمين وأكثر النساء ضواحك فكأنهنَّ يسخرن من اختهنَّ المنهوك عرضها . ويالالعجب كيف كن يزلقنها بابصارهن

ساعة تدخل المحكمة متكئة على ذراع زوجها . واما القسيس فما من قسيس الا كان معه حتى بعض النساء شهدنَ له بطهارة الذيل وعفة القلب . وكذلك انتشل الباغي من حمأة الخزي والعار والنساء يتساءلن ويتهاتفن قائلات : ولمَ اخبرت زوجها لِمَ لم تسكت وتستر اهانتها . فخرجت المسكينة من المحكمة مدحورة مذمومة وخرج القسيس والغيد يرمقنه باعين عطوفة واخوانه يقبلون عليه باوجههم مهنئين . فقلت اذ ذاك في نفسي لا عدو للمرأة الا المرأة ولا صديقاً حميماً للقسيس ان كان في اميركا او في بلادنا الا هذه المخلوقة اللطيفة المباركة . وفي المسألة سر بل اسرار اسدل عليها اولو الامر الستر محافظة على هؤلاء الابرار واما الان فانك لترى مقاليد هذا السر في يد الفطن والغبي من الناس وفي جيب الصغير والكبير من العوام . اصرف اللّهم الخزي والعار عن هؤلاء العبَّاد من العباد

ما من مشاحة في ان الاديان هزت الشعوب فلطفت نوعاً انفسهم الهمجية الخشنة وان حب الخير هز الملايين من الناس فجاؤا بالصالحات والمبرات وان الشجاعة هزت الالوف والبستهم المجد في الصفوف وان الفلسفة وحب الحق والعدل اثرا نوعاً في بعض المئات من البشر واما عاطفة الغيرة الخبيثة فانها لتهز كل امرئ وتستفزه وتحمله على ارتكاب ما يعد بغيا وعدوانا في غير هذا السبيل .

ومذ نشوء الحياة البشرية او بالحري من يوم ظهر الانسان في صورة قرد كما قيل رأى في شجرته قرداً اخر فهزته عاطفة الغيرة واستفزته وكانت النتيجة موتا زؤاما على الدخيل الباغي. وان اسفل العواطف البشرية وافظعها لتهيج الواحد منا الآن كما هاجت ذاك القرد وحملته على قتل اخيه فهي لم تزل مالكة عقولنا مستولية على اعمالنا عابثة بعلومنا ومعارفنا ساخرة من فهمنا ومداركنا. لا ننكر اننا تقدمنا مادياً تقدماً سريعاً جسيماً فالعالم اليوم اعظم من ذي قبل من حيث الجريدة التي تدعى تجارة والتفنن في القتل الذي يدعى حرباً والعبودية التي تدعى صناعة. واما ادبياً وروحياً فلم نزل اطفالاً نتهته في المهد ونحسب لعابنا المتحلب زبدَ صرعة الوحي وصراخنا دويَّ نبوّة.



التعزية في المصيبة والمصيبة في التعزية

ان مصيبتي ناتجة عن الطبيعة التي انا منها وفيها ولها • انها نتيجة عوامل خفية تظهر في زرع الحقل كما تظهر في نفسي وتؤثر في العشب الملتصق في المحار كما تؤثر في اعصاب الحيوان والانسان اذاً لا يحق ان تدعى مصيبتي مصيبة . بل هي بيت من القصيدة الالهية الجامعة اللانهاية لها — هي بيت واحد من القصيدة التي ينظمها الخالق فتتلاطم في بحارها امواج الرزايا . ويتبسم في سمائها برق السرور . وتتدفق من قوافيها سواقي الحب الفضية . وتتأجج تحت الفاظها نيران الهيام والحسرة واليأس . هي قصيدة الحياة التي ينظمها شاعر السموات والارض ويجعل الفاظها الأودية والسهول والجبال والبحار . ونقطها كواكب السماء ويدورها . وحركاتها الرياح والعواصف . ومقاطعها حوادث الامم والافراد . ومحورها الحياة والموت وما يتخللهما من السكوت والابتسام والبكاء •

نعم مصيبتي هي بيت واحد من هذه القصيدة نظم من اجلي خاصة فأقرأه بعد ساعات السرور مراراً وارده في ساعات الغم تكراراً . ثم اعود الى ما في القصيدة الشاملة من الابيات التي نظمت لغيري • ابيات يغازل جمالها عرائس السرور وتدرج في لهيب بيانها ارواح المحبين وتستذرف من عيون القدر دموع

القداسة . وكل حادث يجري في العالم هو بيت من هذه القصيدة والسعيد الذي يقرأ معظمها . اذ لا يستطيع احد من البشر ان يقرأها كلها .

انا على اتفاق تام مع الطبيعة والخالق . احترم ناظم السموات واعجب بقصيدته الالهية فاقرأ البيت الذي نظم من اجل الغير كما اقرأ البيت الذي نظم من اجلي . واللذة التي اجدها في الواحد توازي الكآبة التي يلبسني اياها الآخر . ما هي مصيبتي اذاً ؟ هي في اصدقائي الاعزاء . بليتي في التعزية التي يقدمها هؤلاء من غير تروٍ وتبصر . في التعزية التي تفسد حزني المقدس فتحوله الى غيظ وحنق وشراسة . نعم انا احب الحزن كما احب السرور وسعادة الانسان مؤلفة من الاثنين

وكل طريق جزتها كنت راشداً وايّ بلاء تُبلني كنت احمدُ

اذا كنت استحق التعزية وانا في محفل الموت فلمَ لا استحقها ايضاً وانا في محافل الحياة . لِمَ لا استحقها وانا في القهاوي والملاهي او المجالس الادبية او في مكتبي .

لا انكر ما للانسان من العواطف التي تميزه عن الحيوان في درجتي الترقي والانحطاط . فهو كتلة عواطف مختلفة منها مستمدة من ينبوع الحب الدائم ومنها باقية من آثار الكهوف والصحارى والأودية . ولهذه الكتلة قشرة غليظة تخفي ما تحتها وتبعده عن حاستي اللمس والنظر . الا وهي قشرة العادات .

فالانسان اذاً كتلة عواطف مختلفة مغطاة بقشرة العادات والتقاليد السميكة ويجب على الحسن من هذه العواطف ان يظهر في حالته الحقيقية . وكيف يتم ذلك اذا لم تنزع عنه القشرة التي تيبس وتذبل مع الزمان . فابقاؤها في هـذه الحالة فوق عواطفنا هو كابقاء باقة من الزهور في اناء آسن فيه الماء . فالتحجر او الذبول الذي يلحق بالقشرة ينتقل الى العواطف كما يتصل فساد الماء بالزهور فتذوي . لذا تحتم علينا ان ننزع القشرة اذا احببنا بقاء عواطفنا سالمة نقية مزهرة .

للعادات كما للانسان وللدول اطوار مختلفة اهم ما نراه ونراقبه منها طور النمو وطور البلوغ وطور الاضمحلال . ففي الاول تنشأ العادة وتنتشر بين الناس وفي الثاني تتملك منهم وتستعبد النفس فهم وفي الثالث تظهر دلائل الاضمحلال اما في الحاكم واما في المحكوم – اما في العادات واما في عبيدها وقد تظهر غالباً في الاثنين معاً اذا لم يكن هنالك سبيل للوراثة . فكم ضعاف يذهبون فريسة عادات قبيحة ! كثيرون كثيرون . وكم عقلاء جريئين ينتبهون وينبهون الى اضرار تلك العادات ويحاولون ابطالها ! قليلون قليلون . نعم ان من يموتون عبيداً ارقاء لاكثر جداً من الذين يعيشون احراراً ويظلون سادات انفسهم . وما اولئك الكثيرون الا هيئات مختلفة ممثلة لاصطلاحات قديمة معتلة . هم صور جديدة بليدة لاجداد طوتهم الايام وانعشت

قبورهم امطار الاعوام . بل هم ارواح ميّتة في قبور متحركة .
وهل تعرف من قتلهم ؟ العادات والاصطلاحات والتقاليد .
وحبذا لو حاول القارئ ان يكون في هذه المناسبة من القاتلين
فينجو عندئذٍ من القتل . وتيقَّن ان التقاليد السقيمة تقتلك اذا
لم تقتلها . ولا يجب ان يراك الانسان في تابوتك او يجس نبضك
ليتأكد انك ميت . فاقتل اذاً ولا تخف . ليس كل قاتل مجرماً

اما العادات التي يجب ابطالها فكثيرة اذكر منها الآن
فروض التعزية المتملكة من السوريين . قد قلت في البدء ان
مصيبتي ليست من الله ولا من الطبيعة بل هي من اصدقائي
ومعارفي . لا مشاحة في ان السوريين يتأثرون اكثر من سواهم
بحادثي الموت والفرح . فلا يسعهم اظهار حزنهم او سرورهم الا
بالولولة والهتاف — بالبكاء والضجيج . وسبب ذلك واضح .
يموت سقراطنا وعلى وجهه ابتسامة السرور والرضى والابتهاج
ويموت البربري من الخوف والرعب قبل ان يقرع الموت بابه .
زملاء الفيلسوف المحبون له ينشطون بموته ويستمد اصدقاؤه
من ابتسامه الالهي شيئاً من الرجاء والتعزية . واما اهل البربري
فيملأون الفضاء ولولة وصراخاً وعويلاً . هذا سبب واحد
وللقارئ ان يتوسع ويزيد .

يموت السوري فيذيع اهله خبر موته فتتهافت المعارف
والاصدقاء والاقارب الى بيت الفقيد ليعزوا اهله . وليأخذوا

بخاطرهم » كما يعبر عن هذا الواجب في لغة العامة . لا اشك ابداً بقصدهم الحسن ولا اسخر من عواطفهم الحقيقية ولكن العادات التي تخفي القصد والكلام الذي يطلون به هذه العواطف فهذه والله البلية الكبرى . اذا كانوا يعنون « باخذ الخاطر » سلب خاطر اهل الفقيد بخلابة اللسان وفصاحة الكلام فهم والحق يقال يفوزون لا بسلب الخاطر فقط بل بتعذيبه وتمزيقه إرْباً إرْباً

الوعظ والنصيحة ! نجنا يارب منهما . نجنا من وعظ الثقلاء ونصائحهم . يظن من يذهب ليعزي ان من واجباته التفلسف في اسرار الكون وحكمة الخالق وجهل المخلوق وبطل الحياة الخ . فيردد الكلام الذي ورثه عن اجداده من دون ما تدبر . وهو كلام فيه من التعزية قدر ما فيه من المعنى او قدر ما في الميت من الحرارة . ما اجمل السكوت في مثل هذه الحالة السكوت الذي يعبر عن كل شيء فما احيلاه . قال احدهم « الكلام يخفي العواطف الحقيقية بدل ان يظهرها » نعم لا حاجة الى اللغة في ساعة الموت او في ساعة الفرح الشديد . اللغة تقصر عن اظهار ما في النفس كما يقصر البرق عن اظهار ما وراء الشمس والكواكب

واما من لا يستطيعون الا التكلم فكم يخففون عن انفسهم لو اعتاضوا عن المواعظ المملة والنصائح السليدة بكلمتين فيهما ما معناه : اننا نشعر معكم في مصابكم ونرجوا ان يطيل الله بقاءكم . وبعد ان يقولوا ذلك ويروا الميت ان شاءوا يذهبون دون ان

ينتظروا القهوة المرة التي يقدمها اهل الفقيد . وهل يفعلون ذلك انتقاماً ياترى ؟ ولِمَ القهوة المرة ؟ فاذا كان صديقي يستحق فنجاناً من القهوة الا يجب ان اقدمه له كما يحبه . لأهل الفقيد الحق ان يميتوا بعض لذاتهم اكراماً له ولكن اكراههم المعزين على ذلك ايضاً هو ضرب من التقاليد التي لا تليق في هذه الايام — الا اذا فهمنا ان المعزي الثقيل الذي يملاء القاعة مواعظ ونصائح فارغة يستحق العقاب على ذلك وفنجان من القهوة المرة هو عقاب خفيف . فما اجمل الرفق والرحمة !

وبعد ان ينتهي المعزي من التفلسف وشرب القهوة يقوم فيودع اهل الفقيد قائلاً : ان شاء الله تكون خاتمة احزانكم . فهل تأمل احد بمعنى هذه العبارة ونتيجتها الواضحة ؟ لكل منا اقارب واصدقاء ومحبون يشق عليه فراقهم ويحزنه موتهم . ولكل منا شخص او شخصان نود لو سبقناهما الى الاخرة كي لا نحزن على فراقهما . ولكن حين يدعو لي المعزي قائلاً « ان شاء الله تكون خاتمة احزانكم » ايريد ان اموت قبل اقاربي وانسباني وخلاني كي لا احزن عليهم عند موتهم . او هل يطلب لنا كلنا الحياة الدائمة على الارض . ويريد ان نبقى ابداً على هذا الشاطئ البارد دون ان نعبر بحر الموت الى الشاطئ الآخر — شاطئ الابدية والسعادة الازلية المنتظرة . ان العاطفة شريفة والدعاء جميل ولكن الغلو خاص بالشعراء .

وهذه كلها افات صغيرة بالنسبة الى آفة اخرى . وكلما نعرف شدة ولوع الخطباء والشعراء عندنا بالتأبين والرثاء . فكل من مات يستحق عندهم دمعة وقصيدة ولا فرق فيما اذا كانت حياة المتوفى هبة ريح في صحراء الخمول او كنز جواهر في سفح جبل العلم والاحسان .

كلما مات سوري تجتمع الناس في بيت اهله لتندبه وتبكيه كما ذكرت . وليس هذا بشيء عند اجتماع الادباء الذين يدعون في الجرائد خطباء وشعراء حول ضريحه ليؤبنوه ويرثوه ويشقوا عليه الجيوب والقلوب . ما احسن هؤلاء الادباء وما اشرفهم ساعة الموت . ما اعظم محبة خطيبهم وغيرته وما اشفق قلبه وافصح لسانه وما اسخى دموعه واشد زفراته . ولكن ما وراء كل ذلك يا ترى . أوراءه نفس حقيقية تشعر بما تبذله العين وينطق به اللسان . أورائه نفس صادقة تتفتت بالفعل كما يتفتت صاحبها امام الناس . او هل وراء ذلك آلة صماء تديرها قوة التقاليد على عجلات العادات المزيتة بزيت التجمل والاطراء ؟

لا انكر ان بين الكثيرين من اولئك الذين يحبون الظهور ويطلبون الشهرة بعض الشعراء الحقيقيين والخطباء الصادقين . ولكن العاقل الناقد لا ينكر ايضاً ان اكثر المؤبنين هم من طبقة اولئك النوادب اللواتي يستأجرن عند الشعوب الهمجية ليندبن الميت ويولولنَ حوله . الا ان الفرق بينهم وبينهن هو ان

النوادب يندبن بالاجرة والخطباء يلغطون ويصيحون بالمجان .

ومن المضحكات انهم لا يتغيرون ولا ينقصون ولا يزيدون في كل مدينة . فهم دائماً فخر كل مأتم وزينة كل مادبة . وكانهم والحالة هذه جوق خطباء وشعراء واقف تحت الطلب مثل جوق المغنين او الممثلين فهم يبكون اليوم في مأتم الاديب الحبيب وينشدون غداً في مأدبة الحسيب النسيب . يرثون اليوم صديقاً فارق العالم ويهنئون غداً شخصاً متمسكاً به وبحطامه . يقولون في الصباح مثلاً : قد اذابنا الحزن عليك يا خير الرجال . ويقولون في المساء : قد اسكرنا السرور في دارك يا امير الناس ويا محيي الآمال . فاذا كانوا مخلصين منذ ساعات فهم كاذبون الآن . واذا كانوا صادقين ساعة السرور فقد كانوا ساعة الحزن مرائين .

انا لا الوم الكاهن الذي تضطره وظيفته ان يحزن في الصباح مع آل الفقيد ويفرح في المساء مع آل العروس لانه لا يشعر حقيقة بكلا الامرين فهو عبد وظيفته التي تأمره بالتظاهر فيتظاهر وبالتصنع فيتصنع . واما ادباؤنا الذين يدعون في الجرائد خطباء وشعراء فما بالهم يزاحمون الكهنة ويسابقونهم . ماذا فعلت الامة السورية لتستحق هذه الضربة ? وهل يجوز ان نشين قداسة الحزن بالثرثرة وندنسها بالرياء . فوا اسفاه ! لو كان عندنا رجال بقدر ما عندنا من مثل هؤلاء الادباء لكنا والحق يقال من خير الشعوب وارقاها .

الرداء الاسود

نمت البارحة كالعادة بعد ان قرأت صفحة من تأملات مرقس اوريليوس . نمت راضياً مرضياً ناسياً منسياً تاركاً وراءي كل ما لا يستحق ان يدخل معي هـذا العالم الجميل الكائن بين عالمي الموت والحياة . ولكن لم اكد اغمض جفني حتى وجدت نفسي عرياناً في ارض صلقع بلقع ترتعد حتى الجن من وحشتها المظلمة . ارض جرداء مرداء لا وديقة تعرف ولا صحراء . لا نابٌ رمده النار ولا مدينة دمرتها العواصف . وجدت نفسي في بقعة ماحلة ولكنها غامرة . في بقعة مجدبة ولكنها مثمرة . كيف لا والزارع فيها الموت والحاصدهو الله . فيها تزرع الجثث الفانية ومنهاتحصد الانفس الخالدة . وجدتني في عالم الاموات عند منتصف الليل والبرد قارس والسماء مكفهرة والديار مهجورة فحجبت عني النجوم نورها وامسكت عني الارض حرارتها وكان قد البسها الغمام في المساء الماضي ثوباً من الثلج فمرّت عليه الرياح وحولته جليداً وصقيعاً . فصارت تزلّ الارض تحت قدمي كلما اعصفت حولي الاهوية .

رياح وجليد . ظلمة وقبور . وانا فيها وعليها اسير عرياناً ابحث عن صديق يسكن تلك الديار فسرت من بيت الى آخر اطرق الابواب برجلي المتجمدة ولكن السكان نيام . لا احد

يسأل : من . ولا احد يقول : ادخل . فظللت سائرًا وانا ازلق تارة واعثر اخرى والرياح لا تشفق والجليد لا يرثي والظلمة لا ترحم . وكنت احس احياناً بشوك تحت قدمي فاذا هي الحصى جمد عليها الثلج فاصبحت رؤوسها كسنان الرماح . سرت هائماً في الظلمة على اشواك من الجليد ورجلاي تتركان وراءي اثرًا من الدم وبدني يرتجف كالقصبة تحت الرياح . نظرت الى السماء ولكن الكواكب لم ترني . فهي راقدة كالاجساد تحت قدمي . هي ملتحفة بملاءة كثيفة من الغيوم فكأنها دهشت لهذا المشهد وأوجست خيفة من تصوراتها فرفعت الغطاء الى ما فوق رأسها . واما انا المسكين العريان فاذا اغمضت طرفي يجلد جفني عليه . واذا وقفت لا ترتاح تلتصق بالارض رجلي . عليّ ان اسير اذًا حيث تقذفني الرياح . فهل تحملني الى ضريح صديقي . لا اعرف . الليل لا يتكلم والجليد لا يعزي . والبرد لا يبتسم والقبور لا تهدي . ولكن ما هذا ؟ من اين النور الذي يشق الظلام ؟ نعم هو كوكب لا يخاف هول القبور قد جاء ليأخذ بيدي . ويهديني الى بيت صديقي وما كدت اسير واياه بضع دقائق حتى مرّ امامي رجل مرتدياً رداءً اسود ثقيلاً فخاطبته بصوت خافت قائلاً : من انت فنظر اليّ ورآني عرياناً أرتجف من القر والهواء وظل سائرًا في طريقه ولم يتكلم . ثم رأيت رجلاً منضياً ثيابه مثلي يتأثره راكضاً ولكنه وقف لما رآني ثم تقدم اليّ وسألني قائلاً : من انت ؟

فقلت : غريب في دار الغربة وانت ؟ فقال : انا احد سكان هذا العالم . انا لص القبور . فقلت وهل تعرف الرجل الذي مر من هنا فقال : نعم هو شريك لي . هو احد اولئك الذين يجهزون المرضى ويجتزون الاموات يجيئني في الليل ليقاسمني الغنيمة بعد ان يهديني الى اثمن القبور واغناها . وما لي اراك ترتجف ؟ فقلت الا تشعر بالبرد فقال : قد الفه جسمي ولكنني والله اخاف عليك منه قال اللص هذا وركض يطلب شريكه المرتدي بالرداء الاسود

اما انا فكاد الدم يجمد في عروقي ووقعت على الجليد مرتعشاً من صبارة القر وشدة الخوف . وبعد هنيهة شعرت بيد تعالجني فرفعت رأسي واذا اللص بجانبي والرداء الاسود بيده فقدمه لي قائلاً : قم والبس هذا فيقيك من البرد . فاخذت الرداء مستبشراً ولكن ما كاد يقع نظري عليه حتى عرفت انه جبة شريكه فاعدته اليه قائلا :

اشكر معروفك ولكنني افضل الموت بقربك عريانا



٧ — فلتر

كل اديب سوري يحب فُلتِرْ ان لم يكن علناً فسرًا وان لم يكن من قبيل المبدأ فمن قبيل التصلف . وكل شاب يخرج من عالم الخرافة المظلم الى بلاد الحرية العامرة يذهب توًا الى فلتر ليقدم له الجزية . فالكاتب الافرنسي الشهير هو في مملكة الآداب الحرة كالبابا في مملكة الكنيسة ولكن بعد ان يعيش المبتدئ تحت سلطة سلطان الحرية لدينية بضع سنين ويقترب منه وينقاد لاحكامه ويسهر واياه ويسمعه يتكلم في نومه يرى شيئاً من نقصه وتنجلي له طرق مكايده واساليب مصانعته فيشعر اذ ذاك بقليل من الاستبداد الذي يجعله الكاتب مقبولاً بما لاسلوبه من اللطف والرقة والرشاقة . واذا لم يكن للشاب رأس مال عقلي خصوصي تفتر فيه الحماسة وتضعف الهمة ويبرد الايمان ويذوب الاخلاص ويجتمع في صدره روح الالحاد مع روح التساهل فيتعانقان ويضحكان من النفس التي رحبت بهما

الالحاد مضر بالصحة . فهو لاشك ينفخ الصدر ولكنه يضعف القلب ويصغِّر الرئتين . اقول هذا عن اختبار ولا اقول اكثر من ذلك . ليعمل القارئ فكره اذًا . الالحاد مضر بالصحة ومهما قلتم لا اوضح . اختبروا لانفسكم ان شئتم ولكن اياكم والتطوح واذا كنتم لا تعرفون الحدود فالاجدر بكم ان لا تجربوا

لئلا تتملك فيكم جراثيم المرض . واذا كانت معدتكم ضعيفة فاياكم وفلتر . واما الذين يهوون الرجل ويحبون القيام تحت سلطته فاليهم أسر هذه الكلمة : قد اتضح لي بعد ان سامرته وآخيته وسهرت واياه وسمعته يتكلم في نومه انه اخطأ مرات في حياته . فما الفائدة من تكران سلطة البابا وخلع ربقة الكنيسة اذا كنا في حياتنا الجديدة نخضع لسلطة اخرى اشد واعظم من تلك ؟ سامروا فلتر وعيشوا في ظل نفوذه ولكن لا تخافوا ان تسألوه وتحتجوا عليه وتعترضوا على ما تظنونه غير مقبول من اقواله وغير مشكور من اعماله . اسهروا واياه . راقبوه في نومه واسمعوه يفشي اسراره .

ان لحياة فلتر اوجهاً عديدة ومن وجه يظهر لي انه في عالم الادب كابي النواس في عالم المحون فكما ننسب الى ابي النواس كثيراً من الملح والنكات التي لا نعرف اصلها ننسب ايضاً الى فلتر كثيراً من الافكار والاقوال الحرة التي مات قائلوها وهم يطلبون الشهرة وكثيرة هذه الافكار التي لا نعرف [illegible] وكثيرون الكتاب الاحرار الصغار الذين عشت بهم [illegible] وردتهم خائبين . فكم من تحف لاقوال وطرف الافكار التي انتشلها فلتر من وادي النسيان فنظفها ونحتها وجلاها -- ووضعها باسمه . وهل يلام على ذلك . الا يحق له ان يدعي ملكية شيء اوجده الاجتهاد وحسنته الصناعة التي امتاز بها . وهل تنقص

قيمة الفكر الجميل لانه منتحل . نعم كان فلتر يسرق كبقية الكتاب والمنشئين الكبار ولكن هؤلاء يختلفون عن صغار الكتاب في كونهم يسرقون ويحسنون ويعترفون بالسرقة واولئك يسرقون فيمسخون وينكرون انهم سرقوا .

أتُهِمَ مرة فلتر بانه سرق بعض افكاره من احد زملائه فاجاب متهميه قائلاً بطريقته المشهورة ما معناه : اذا كان هذا الكاتب سبقني الى ما كتبت فيكون قد سرق من الموضع الذي سرقت انا منه . وقد قال غير مرة في نفس الموضوع ما معناه : واذا أهدى اليك احد حصاناً اتفحص اضراسه قبل ان تقبله ؟ وكم من الكتاب الذين نقلوا قوله المشهور عن الله وفاتهم ان كاتباً رومانياً سبقه اليه . وانما اعني قوله : « اذا كان الله معدوماً فينبغي للانسان ايجاده » وقد غاب عن بالي اليوم اسم الكاتب الروماني الذي قال هذا القول . واني لاذكر انه اخذ من القرآن قصة كاملة واثبتها في احدى رواياته دون ان يشير الى مصدرها وهي قصة موسى في سورة الكهف مع ذاك الذي أوتي رحمة من عند ربه وعلماً . واولها « قال له موسى هل اتبعك على ان تعلمن مما علمتَ رشداً » الى آخر الحديث فاذكر اني قرأت هذه القصة منذ سنين في روايته التي تدعى جاديز وهي مثبتة في الحديث بين الناسك وبطل الرواية .

كان فلتر واسع الاطلاع غزير المادة كثير التفنن في الانشاء

والترسل وكان اذا احتاج الى فكرٍ ما اخذه من رأس النبع لا من المترجمين والناقلين والناقلين عن الناقلين والمترجمين كما يفعل الكويتب القليل الاطلاع القصير الباع . ذاك الذي وصفه الشاعر العربي بقوله .

فتىً ينظم الشعر ولكنه على ما علمنا يسرق المسروقا

تعجبني في فلتر حرية فكره وخفة روحه مع شدة لهجته وطلاوة اسلوبه ولطف تهكمه ودقة معانيه وهذه خاصيات ومميزات تظهر في كل ما ألفه الرجل ان كان فصلاً في فلسفة التاريخ اوقصيدة تصف نكبة لِزْبن او رواية يسلق فيها اليسوعيين او رسالة يتهكم فيها على الانكليز او كتاباً يدغدغ فيه احد اصدقائه من الملوك والامراء . هذا ما له علاقة باسلوبه وطريقته واما اخلاص النية في الاقوال وسلامة القلب في الاعمال فتلك مسئلة فيها نظر بل فيها نظران وثلاثة .

انا لا اقول قول اعدائه فيه . معاذ الله ان اقول انه اول الخبثاء والماكرين واكبر اللؤماء والدجالين او انه مسوخ الذكاء ارسل الى العالم من قبل ابليس . او انه [illegible] كانها متجسدة في انسان . او انه خنزب أبالت [illegible] المضحكة التي يرميه بها اولئك [illegible] طرق العلم مسلحين ليصدوا [illegible] من الاحرار [illegible] ليوقعوا بهم ويسلبوه، [illegible] تزوده من [illegible] العاقبات .

ويشوّهون بعد ذلك وجه شهرتهم ويطوون ان استطاعوا ذكرهم في مكامن الحقود والاغراض . ولكنني اختلفت مع فلتر البارح وتأسفت لما رأيت ان الاخلاص الذي يصفه به محبوه هو كالاخلاص الذي يدعيه اكثر المؤلفين . اي انه زمني يظهر ويختفي ويشتد ويضعف مع الظروف والاحوال . نعم ان هذا المترسل الافرنسي كابي السواس في حيله ودخمسته . وكثيرًا ما كانت تظهر بطانة ثوب الاخلاص الذي كان يلبسه . ويا لها من بطانة . ومما هو معروف ان الرجل مشهود بكتاباته في الحرية الدينية . ولكن حريته كانت مفتقرة الى التساهل الشامل الذي ندعو اليه .

كان يعتقد فلتر بان الدين الاسلامي دين فاسد والف رواية تمثيلية دعاها « التعصب » واهداها الى البابا بعد ان كان قد اشتهر بعداوته للكنيسة وأربابها . مفتتحاً كتابه بهذه الكلمات :

الى رئيس الديانة الحقيقية اهدي هذا التأليف في موسس ديانة فاسدة الخ .

فقبل البابا الهدية بكل سرور وبعث الى فلتر كتاباً لطيفاً اثنى فيه على غيرته (بخٍ بخٍ) وانتقد بعض ابيات في الرواية الشعرية فاجابه فلتر متجاملاً على عادته في مثل هذه الامور : انك لا شك معصوم عن الغلط في المسائل الادبية ايضاً (زه ثم زه)

وهكذا تبادل الاثنان عواطف الولاء الكاذب وانتصر

فلتر على اعدائـه اليسوعيين وانصارهم . لا يخفى على القارئ اللبيب ما في هذا العمل من السياسة والحيلة والمكر فضلاً عن ان الكاتب اخطأ في انتقاده الدين الاسلامي وفي تحامله المنكر على موءسسه العظيم .

لا شك انـا تقدمنا قليلاً في الادبيات كما تقدمنا كثيراً في الماديات ودليل ذلك هو ان فلتر زماننا لا يتطاول على الاسلام ولا على الوثنيين لغايات دنيئة . تولستوي لا يتخذ الحيلة ذريعة لينتصر على اعدائه . وهل تظن ايها القارئ ان البابا الحالي يقبل ان تهدى اليه رواية فيها يطعن الموءلف على دين من الاديان . انا لا اظن ذلك ولكن اذا كان تساهل فلتر ناقصاً فتساهلنا لم يكمل حتى الآن . فقد خطونا خطوة صغيرة نحو التوفيق التام والمحبة الشاملة والسلام السابغ . نعم خطوة صغيرة فقط .



جان جاك روسو

ومن لايعرفه ان لم يكن حق المعرفة فبالاسم على الاقل . الا يحذّرنا الكهنة في المدارس منه . الا يحاولون خارجها ابعادنا عنه . فهم الذين يرغبوننا بالاطلاع على كتبه اذاً وبورود موارد علمه وادبه . ومن انقلابات الطبيعة على من يخلون بنواميسها هو ان حب الممنوع والميل الى المحرّم يفوزان ابداً على انذار ذوي المآرب وتحذيرهم . وليست غايتي الآن كتابة رسالة مستوفاة منسقة تنسيقاً مقسمة اقساماً ذات مقدمات ونتائج مربوطة الواحدة بالاخرى . ليست غايتي الخوض في تآليف روسو وفلسفته والبحث في علمه ومبادئه وآدابه . ليست غايتي سرد سيرة حياته وتسويد هذه الصفحات بالتواريخ والازمان . وباسماء اعدائه من ادباء وعلماء وحكام . وبوصف خليلاته الكثيرات من الاشراف والعوام . لا لا . اني اترك الان ذلك لغيري من الكتاب . فصديقي العالم جرجي زيدان مثلاً يوفي روسو حقه في باب مشاهير الرجال اذا لم يكن قد فعل ذلك اما انا فما تعلمت حتى الان ان اكتب ما يليق بدائرة المعارف

وما غايتي الا كتابة بعض السطور عن روسو الرجل لا المؤلف فالذي يجيل النظر في سيرة حياته ويدقق الفكر في تآليفه يرى انه «كان يظهر حقيقة مايعلمه بما يعمله» يرى بين

خروجه عن المألوف بالقول وخروجه عنه بالفعل كثيراً من التناسب والتقارب . كان روسو نقيض فلتر من هذه الوجهة بيد انه في حداثته كان يعجب بزميله الشهير ويدعو نفسه تلميذه . وفي غضون ذهاب فلتر بالشهرة كان جان جاك من جملة اولئك الشبان الذين قرأوا كل مانشره ذلك النابغة الداهية بلهفةلامثيل لها وكانوا يفاخرون بكونهم من انصاره . كان روسو في ذلك الوقت شاباً خليعاً لئياً متبذّلاً له من الجرأة والاقدام ما له في كل الامور ماعدا ماتعلق منها بمجالسة السيدات ومسامرتهن . كيف لا وقد درس الموسيقى بضع سنين وهو لايعرف من هذا الفن الا بقدر ما كان يعرف فلتر من علم الفلك

وحياة روسو وهو رجل كحياته وهو شاب من حيث انه اعطى النفس هواها في كل الامور وذهب مع الطبع في جميع اطواره . واما ان ذلك سبب ماغشاه من الشقاء والبلاء والنغص والغصص فما هو بالامر الغريب العجيب . فالتفرد بالمزايا كاف المرء كثيراً والخروج عما اعتاده الناس متلف له . والى اليوم لا يستطيع المرء ان يعيش حياة عقلية طبيعيةعلى وفق قلبه ومزاجه دون ان يخرج بعض الخروج عن دائرة المألوف من العادات والمعروف من الشرائع والعقائد . واذا فعل ذلك فالويل ثم الويل. اذا فعل ذلك يحتقره القوم ويلعنه الناس ويزدريه رجال الادب وتتعقبه للشريعة ويقعد له الروساء في الرصيد ان مثل هذا يحدث

اليوم فكيف لا يحدث في زمن روسو . عاش جان جاك بالقرب من البؤساء والفقراء بين الشعب المظلوم المثقل باعباء الدولة والكنيسة وعاش ايضاً بين الجميلات من النساء والكريمات من الخواتين فاثار فيه الوسط الاول عاطفة لغضب وحرك فيه الوسط الثاني عاطفة الحنو والرقة والحب . فكتب ما كتبه وفيه كثير من دموع النساء على شعب رازح بالذل والعبودية مكبل بالاغلال والقيود وعندي ان هذا هو السر في قوة روسو وفي ذكائه هذه هي المزية التي ترفعه على فلتر وعلى سواه من زملائه فالمرأة شحذت قريحته والشعب البائس اثارها . ولذلك دُعي رسول الثورة وسمِّيت كتبه اناجيلها . ومن غرائب المقادير وتقلبات الزمان ان تآليفه كانت تُغلف ابان الثورة الاولى بغلف مصنوعة من جلود اولئك الذين اضطهدوه وسفهوا رأيه .

وقد عثرت على كتاب بعثه الى مدام ديبيناي فآثرت تعريبه حباً باظهار ما فيه من وصف الرجل لنفسه . وقبل ان آتي بالترجمة اذكر حادثتين اخبرنا بهما في « اعترافاته » ليرى القارئ ما كان عليه الرجل من الخسة والدناءة وسوء السيرة

يوم كان روسو نازلاً على احدى الخواتين اللواتي آوينه سرق سرقة صغيرة فأتهمت بذلك الخادمة وطردت من البيت وروسو لم يقل كلمة واحدة ليبرئها او ليرد عنها التهمة . سرق هو السرقة فعوقبت الخادمة بسببه وظل هو صامتاً . وكان ماشياً ذات يوم

مع صديق حميم وهو الاستاذ الذي كان يعلمه الموسيقى وفي ذاك اليوم كان الاستاذ طافحاً بالخمرة فوقع على الرصيف مغمى عليه . واما روسو فماذا تظنه فعل ؟ ترك صديقه يخبط على الرصيف وفر هارباً . هذا هو الرجل الذي كان يذوب حباً بالقرب من النساء ويستشيط غضباً على الدول والحكام من اجل الشعب البائس . هذا هو الرجل الذي ألف كتابه الشهير في التربية — الكتاب الذي لا يعتق مهما قدم عليه الزمان لان المبادئ التي اعلنها والتعاليم التي وضعها في معنى تربية الاولاد لم تزل معتبرة عند ارباب البحث وفلاسفة العمران . ولكن الفيلسوف الذي وضع هذه المبادئ السامية هجر اولاده طمعاً باللذات وتركهم في ملجأ اللقطاء تملصاً من الواجبات .

والكتاب الذي اشرت اليه بعث به الى مدام ديبيناي سنة ١٧٥٦ بمناسبة اهدائها اليه بيتاً جميلاً في احد المصايف بالقرب من غابة موغورنسي المشهورة . فهل شكر الرجل المرأة على هديتها . اقرأ جوابه :

سيدتي : اتريدين ان تجعليني خادماً وعبداً لك بهديتك هذه ان لك ايتها العقيلة الحظ ان تري كل يوم اكبر اشقياء الدهر واعظم نوابغ الزمان . ها هو رجل خسيس وعظيم في آن واحد . هو احط من الحيوان في الغريزة وله مطامع ورغائب تتصل اطرافها بالآلهة . هو لئيم للغاية ولكن ليس في كل اعماله . ان له

في اشأم الفتن ناقة وفي اخطر الاعمال علاقــة . وعنده حظ وافر من الخيلاء والخساسة والكذب والخيانة . مع ان مبادئه الكمالية شريفة سامية واجتهاده ونياته لا ينكرهما عليه انسان . واذا كانت سيدتي تسر بالتقرب من رجل مشهور والتزلف اليه فسرورها لا يكون ابداً صافياً خالياً من الاكدار . لان الرجل المشهور خشن الطبع غالباً وناكر الجميل فهو يعتبر نفسه مهانــاً حيث لا اهانة قط . ويكون في الغالب شرساً صبيانياً مضحكاً بتصرفـه ناظراً بالعين المجردة الى الاشياء نظرة الاعمى الى الشمس . كل شيء عنده ناقص مظلم وكل شيء حوله مختل

هذه هي المنة التي اظهرها روسو . هذه هي الحرية التي عاش في ظلها رسول الثورة

خرج ذات يوم رجل من باريس قاصداً البرية ومعه كتاب كان قد طبع في ذلك الوقت واحدث ضجة عظيمة في عالم اوروبا الادبي . ذهب الرجل متنزهاً واخذ الكتاب معــه رفيقاً انيساً فقرأ معظمه في ذلك النهار وهو مستلقٍ على العشب في ظل دوحة من البان . وظل يقرأ الى ان مالت الشمس الى الغروب فنهض اذ ذاك وهو معجب بما في الكتاب من التعاليم السامية والمبادئ السديدة . وبينما هو عائد الى باريس التقى بشيخ جليل يتوكأ على العصا وفي يساره باقة من الرياحين والنباتات . فتبادل الاثنان عبارات السلام وسارا في الطريق معاً . ولا عجب اذا حاول الرجل

مخاطبة الشيخ في ذلك الحين فتأثيرات الكتاب الذى قرأه كانت لم ترل حديثة في نفسه . وفي هذه الحالة تأبى التأثيرات التعجب . ولذلك كلم الغريبُ الشيخ قائلا :

— عسى ان تكون سررت في الفلاة يا سيدي .

— نعم جئت افتش على بعض الرياحين التي تنبت في هذه الجهات فقط

— ما اجمل الطبيعة وما اعظم من يقربوننا منها في كتاباتهم قد خرجت ومعي اشهر كتاب طبع في الوقت الحاضر . ولا حاجة للتسمية قد قرأت بعض فصول « اميل » ووددت لو كنت خادماً لجان جاك روسو . ثق اني اهب نصف ما املكه لارى الان هذا النابغة العظيم واظهر له الانفعالات الحسنة التي احدثها كتابه في نفسي . وماذا يهم الامة الافرنسية اذا كان المؤلف جنوي الاصل وعندي ان لا جنسية للنابغة فهو ابن العالم على الاطلاق . ان المؤلف العظيم لملك في كل وقت وفي كل مكان وله من كل الشعوب والامم رعية مخلصة تعجب بمواهبه . لا بل تعبدها فقاطعه عندئذٍ الشيخ قائلا :

وهلا يخطر في بالك ان بان جاك روسو يتنازل عن الشهرة التي تعجب بها ليكون احد اولئك الحطابين الذين نرى دخان اكواخهم هناك ؟ ماذا اثمرت له الشهرة وهل اكسبته غير الاضطهاد اما الاصدقاء والمحبون الذين لا يعرفهم ولا يراهم فهم يكتفون

بقراءة كتبه ويباركونه في قلوبهم ولكن الالوف من الاعداء يرمونه ابداً بالقذف والتعيير . لا شك ان النجاح يعزز الكرامة ولكن كم مرة تجرح كرامة الفائز بتطفل الخائبين وبفضول من حبطت مساعيهم . وكن على يقين ان كرامة المرء تشبه في اصلها ذلك الشريف المترف الذي لا ينام الا اذا كانت زهور غرفته في محلها . اما الجهاد العقلي المتواصل فقد ينفع العالم في الاحايين ولكنه يضر بصاحبه دائماً . وكلما شاخ الرجل كبر عليه دين عقله وما قيمة ما يدفعه الفيلسوف المحاط بالحقائق المكروهة الى هذا العقل المتطلب الكمال . قد شبهت النبوغ بمملكة ولكن اي رجل فاضل لا يخشى ان يكون ملكاً فيها . القوي هو اقرب الى السقوط من الضعيف . وكلما ارتفع المرء تكاثفت حوله غيوم الاخطار والمحن فلا تحسد الرجل الذي الف هذا الكتاب ولا تعجب به . بل اشفق عليه ان كنت شفيقاً

فتعجب الرجل من حكمة الشيخ السوداء والبس تعجبه ثوباً من السكوت . وكانا قد دخلا الطريق التي تؤدي الى قصر فرساي فمرّت بالقرب منهما مركبة اطلّت من نافذتها امرأة جميلة وصرخت اذ رأت الشيخ قائلة :

ها هو جان جاك . ها هو روسو .

اما رفيق الشيخ فلبث حيران مبهوتاً وسمع روسو يخاطبه بلهجة عنيفة وصوت حاد : ارأيت هذا . ارأيت هذا لا يقدر

جان جاك على الاقل ان يخفي نفسه عن الناس فالبعض يذكرونه باحتقار والبعض باكرام واعجاب . والجميع يدلون عليه بالاصابع ويظنونه ملكا مشاعاً كهذا التمثال مثلاً او كتلك الخربة . فالمرء الذي ينال قليلا من الشهرة ويبتسم له النجاح يصبح سلعة يتصرف بها الجمهور فكل امرئ ينبش في ارض حياته ويردد عنه اتفه الامور ويمس بذلك احساساته ويجرح كرامته . الرجل المشهور هو مثل هذا الحائط الذي يشوه بالاعلانات والتزوايق ولعلك تقول انني شجعت الناس على التداخل في شؤوني الخاصة اذ نشرت شيئاً من كتاب الاعترافات ولكن العالم اضطرني الى ذلك . نظر الناس الى داخل بيتي من الشقوق وعيروني فوجب عليّ ان افتح لهم النوافذ والابواب ليروني كما انا لا كما يتصورون ويتوهمون .

الوداع يا سيدي . واذا ذكرت الشهرة ثانية فاذكر انك قابلت اعظم واشأم بنيها .



وليم غاريسون

لامراء في ان الناس يقرأون غالباً كل ما يكتب عن كبار الرجال ومشاهير الكتاب ولكن ليس كل ما يكتب فهم يستحق القراءة وليس كل ما يقرأ يحفظ وينقل . وقد يكون غالباً بين قصد الكاتب وبساطة القارئ او تعصبه اودية ووهاد . اي ان اكثر القراء لا يتفهمون اقوال الكاتب الا بالناقص او بالزائد وقليلون من يزنون الكلام والمعاني بميزان المؤلف لا بميزانهم . او بالحري بميزان العقل لا بميزان الحماسة او البساطة او الغيرة او التعصب او الكل معاً .

وما الغاية يا ترى من هذه الملاحظات . هل هي مقدمة لاقوال جديدة في رجل عظيم جديد . لا . بل هي تمهيد صغير لكلمتين موجزتين في واحد من اولئك الكتاب المنسيين في ظلمة النسيان المحكوم عليهم بالخمول ظلماً وعدواناً من جمهور الادباء والمطالعين . واما هوغو ورنان وتولستوي وغيرهم من النوابغ الذين تكثر من ذكرهم الجرائد والمجلات فاولئك لا خوف عليهم من الاهمال . بل الخوف كل الخوف عليهم وعلى شهرتهم الحسنة مما تتناقله الجرائد عنهم ويكتبه الكتاب عن مبادئهم وآرائهم وكتبهم .

نعم جئت احدثك اليوم بواحد من اولئك الكتاب المنسيين

واخلاص .

كان فؤاد الصحافي هـذا يلتهب غيرة وحنوًا على شعب افريقي راسفاً في سلاسل العبودية في بلاد تدّعي الحرية . فصرخ في وجوه مستعبديه صرخة ارتجت لها البلاد الاميركية من اقاصي الغرب الى اقاصي الجنوب وبدأت اذ ذاك تظهر انصاره وتزداد . اصحابه فتلبدت الغيوم على آفاق التجارة وفي جوها وأنذرت الامة باعصار هائل . فأخذت صواعق المتمولين تتساقط على رأس الشاب ولكنها لم ترعزعه . ضُرب مرات ضرباً عنيفاً وجُر في شوارع بوسطن مشتوماً ذليلاً وندد به الكبير والصغير واشار اليه ارباب العلم والادب باصابع الازدراء والسخرية ومنحت حكومة ولاية جورجيا جائزة لا تقل عن الخمسة الاف دولار لمن يجيئها به حياً او ميتاً ولكن الصحافي الحر ظـل في مركزه كجبل من جبال الالب راسخة قواعده في ارض الحرية التي لا يموت فيها الفكر ولا يسخَّر القلب والضمير . ظل متمسكاً بعقيدته واشتدت صرخته على اولئك الذين استعبدوا قسماً كبيرًا من الناس .

ولم يحلم احد من اعدائه بان البذور التي زرعها سنـة ١٨٣٠ تثمر في خلال ثلاثين سنة . نعم ان المبدأ الذي بشَّر بـه وِلْيم غاريسون الاميركي وهو رجل فقير حقير لا يملك الا قلبه وعقله وقلمه عمّ في ثلاثين سنة نصف الامة الاميركية وأنتج اخيرًا

تلك الحرب الاهلية الهائلة التي ابطلت النخاسة وحررت العبيد ومحت عن جبين العالم الجديد وصمة العار .

عقيـدة بسيطة وُلدت في شارع صغير في بوسطن لشاب مكروه منبوذ فقير وانتشرت في وقت قصير في انحاء الجمهورية كافة وتكللت اخيراً بمنشور الحرية الذي اصدره ابرهيم لنكلن من عاصمة البلاد . هذا هو تاريخ النهضة على العبوديـة . وهو غير التاريخ الذي نقرأه في المدارس . نعم ان النهضة هـذه تبتدئ بوليم غاريسون احد سكان دهاليز التاريخ والادب المنسية وتنتهي برئيس الجمهورية . تنتهي بالرجل الذي لا تخلو مدينة كبيرة من تمثاله . فكلنا نسمع بابرهيم لِنْكُلِنْ محرر العبيد ومبطل النخاسة ولكن من منا يعرف صاحب جريدة " محرر الرقيق " الذي زرع البذور التي حصدتها الامة في عهد الرئيس الشهير . افلا يجدر بنا اذاً ان نذكر هذا الرجل مرة بالاجلال والاكرام مثلما تذكر الامة الاميركية رئيسها محتفلة بعيده كل عام ؟



تولستوي

وقبل ان اقول كلمتي في من هو اشهر كتّاب هـذا العصر احب ان اقابل بينه وبين مُرغن المثري الاميركي الشهير وان كان لا يتبادر للذهن ان هناك ما يوجب ذكر الواحـد مع الآخر . فالاول نقيض الثاني على خط مستقيم . الاول يمثل القوة الروحية في عالم الادب والثاني يمثل القوة المادية المالية في عالم التجارة . الاول جاءنا من فوق – من الطبقة العليا في الهيئة الاجتماعية والثاني نهض من ظلمات الخمول – من بين الجموع البائسة . ولد الاول اميراً فجعل نفسه فلاحاً وولد الثاني فلاحاً فجعل نفسه اميراً . يعيش الاول ويجاهد من اجل الانسانية وتكد وتعرق الملايين من الناس من اجل الثاني وهو جالس على ظهر يختـه يشرب الشمبانيا ويدخن منشرح الصدر مطمئن البال . الاول تمثال الحرية والاخاء والمحبة ونصير المبدأ الذي يقول بملكية الفرد (اي ان كل فرد هو ملك بذاته) والثاني تمثال القساوة والاستعباد والتجبر والاستبداد

فالرجلان اذن يمثلان الخير والشر في اشد حالتيهما وبينهما على الرغم من ذلك وجه شبه كما تقـدم . الاثنان جباران تشعر بنفوذهما الامم والشعوب . الاول عظيم في الروحيات والثاني عظيم في الماديات . الاول جبار في الحكمة والادب والثاني جبار

في التجارة والمال . ووجه الشبه بين الاثنين هو ان حكومتيهما تخشاهما وتعاملهما معاملة حكومة مستقلة . اي ان كليهما حكومة ضمن حكومة . وقد رأينا مؤخراً كيف تفاوض رئيس الولايات المتحدة ومُرغن فيما يختص بمسألة المعدنين واصحاب المعادن . فبعث اليه ناظر الحربية مستعطفاً بجاء هذا صغيراً وتوجه الى يخت المثري الشهير فرآه جالساً هناك جلوس القياصرة والاكاسرة وواجهه كأنه عاهل الالمان ورجاه باسم الرئيس وتوسل اليه طالباً منه الاسعاف في فض هذا المشكل الخطير وعاد كما جاء صغيراً حقيراً حاملاً الى الرئيس جواب المستر مُرغن المؤلف من تين الكلمتين : سابذل جهدي . فالحكومة والشعب يخشيان هذا الرجل كما لو كان قوة من الجحيم . اما الحكومة فتخشى مُرغن لان الحزب الحاكم يحتاج الى ماله ومناصرته وقت الانتخاب . واما الشعب فيخشاه لانه يستطيع ان يقطع عن الملايين من الفقراء والمتوسطين لوازم الحياة

والحكومة الروسية تخشى تولستوي وتهابه ايضاً . ولماذا ؟ ان تولستوي الا رجل فقير بالنسبة الى المياسير في العالم ولا ديون له على الحكومة . تولستوي لا يحتكر حتى صنفاً واحداً من لوازم الحياة . تولستوي لا يرشي القضاة والحكام . تولستوي لا يشتري نفوذه بالمال . تولستوي لا يعزز قوته الادبية وسلطته الروحية بالجند والسلاح ولا بالجهل والخرافة . لماذا اذاً تهابه

حكومته وتعامله كما تعامل حكومة اوروبية اخرى . نعم ان الحكومة وتولستوي متساويان لا بل الفيلسوف الشهير هو اعظم من حكومته واقوى . فهو يكتب اليها طالباً منها ان تقاصه وتضطهده اذا كان ما يقوله ويعمله شراً . ولكن الحكومة الجبانة الحكومة المسحوقة بزواجر النفس وقوارع الضمير تغض الطرف عن تولستوي وتضطهد الضعفاء والفقراء الذين ينتحلون مذهبه ويقرؤون كتبه وينصرون مبادئه . فلماذا لا تضطهد من كان مصدر هذا الشر اذا كانت تعتقده شراً كما قال في كتاب بعث به اليها . لماذا لا تنفي تولستوي لماذا لا تحبسه لماذا لا تقتله . لماذا ترتعد من نفوذه وتخشى صولته ؟ لانه يا صديقي يمثل قوة الخير دون تصنع وتكبر وانانية . لانه مسلح بالحق ومحصن بقلوب مريديه الملتهبة حماساً . لان نفوذه الروحي لا يقاس ولا يحد . لا مثيل له لا في جميع القوات المادية القائمة بالسلاح والمدرعات ولا في السلطات الروحية الكاذبة المؤسسة على الجهل والطاعة والخرافات . لان اعماله تنطبق على اقواله . لانه مخلص متواضع مهتضم لنفسه لا كاكثر المصلحين متصنع اناني دجال .

ان لتولستوي اعمالاً تثبت كما قلت اقواله . وله اقوال هي اقرب الى ما سيأتي من رد الفعل على "التمدن الاوروبي مما هي الى التعاليم التي قامت عليها معاقل هذه الحضارة . فهو يكثر من ذكر بعض آيات الانجيل ويتوسع توسعاً عجيباً في بعض اقوال

المسيح ويحث الناس على العمل جملة واحدة بهذه الاقوال وفي الحال . ولكن فاته ان المسيح اتى ليكمل فكمل ولا حاجة الآن الى من يحمل رسالته ليكملها بل الحاجة ماسة الى اناس ينبهون المسيحيين تنبيهاً ويبشرون حباً بالحقيقة لا حباً بالمال ولكن ما لنا وللتبشير الآن . فقد ثبت عند المفكرين بعد ان ظهرت نتائج الرسالة المسيحية ان اغلب ما فيها لا يقوم مقام الفلسفة الوثنية . وما لنا الا ان ننتظر رد الفعل ونتائجه التي يشير اليها تولستوي في بعض كتاباته ويحرض الشعب الى ما يؤدي اليها عاجلاً او آجلاً ان في رد الفعل هذا سحق قوة الافراد المطلقة وتعزيز قوة الفرد على الاطلاق . فقد تقرر في الجمهوريات ان قوة الاكثرية لا تقوّم دائماً المعوج ولا تصلح الفاسد ولا تكون الا نادرًا في جانب الحق والعدل والحقيقة . فلا بد من رد الفعل اذًا ولا مناص منه وكل ما هنالك من التعاليم الحديثة والشرائع المدنية الجديدة تنحو هذا النحو . وما دام الشر هذا اي تسلط الافراد ملوكاً كانوا او متمولين على الاكثرية بقوة المال والسلاح ما دام السلم الذي بشر به تولستوي في كتبه الاولى بعيدًا جدًا . ومقاومة الشر بالخير لا يكون الخير دائماً فيها . فما الثورات في الامم الا نوع من العدل البشري الذي يحده من جهة عدل الانسان ومن الجهة الاخرى عدل الله .

واما الاعمال التي تثبت اقوال تولستوي وتعزز تعاليمه

فوافرة ويكفي ان اذكر انه ولد في ظل دولة ظالمة مستبدة وشب وعاش دمقراطياً حراً . بل اشتراكياً عاملاً بل فوضوياً مسالماً ولد حيثما الشرع يعتبر مُنزلاً وذا خاصية الهية وما رشد حتى نبذ كل سلطة مدنية ودينية . تربى في حضن الترف والبذخ والنعيم وعاش بين الاشراف والاعيان ونراه الان نابذاً لقبه ومجرداً نفسه من كل زخارف الحياة ولذاتها . ولد ليأمر ويستأثر ويستبد فأخذ يبشر بالحب الشامل والحقوق المتساوية والسلام العام . ولد لتكون الخدم حافة من حوله ابداً فصار اخاً للفلاح وخادماً للانسانية التي تتألم من الظلم والاستعباد . ولد ليتمتع ببذخ الاشراف وجمال منازل الاعيان فترك ما هو ملكه من البيوت وقسم ارزاقه بين فلاحيه « او شركائه » وهو يسكن الان في دار قوراء مع امرأته واولاده . وليس له في البيت بين كل هؤلاء الا ابنة واحدة تشاركه في اعتقاده وتعيش عيشته . واما امرأته الكنتس فتهز كتفيها ساخرة وتسير في طريق الاشراف مكابرة . هي تحافظ على لقبها ومركزها وتأدب المآدب في بيتها لاترابها وهو يعيش وابنته عيشة بسيطة فتقرأ على مسمعه في ساعات الفراغ الكتب التي يحبها بينما هو يعمل الاحذية . امرأته تترفع عن الشعب وتسعى في ازدياد ثروتها وتوسيع املاكها . وهو يقول قول الاشتراكيين ويعمل به . واظن ان الفيلسوف يلبس ثوب الفلاحين ويمشي احياناً حافياً لان امرأته تلبس المشد والاحذية

العالية الكعاب . التطرف يولد التطرف وهذه بعض الاسباب التي حملته في ايامه الاولى على تأليف روايته المشهورة « لحن كروتسر » واما الان فقد بعد عن ذاك الاعتقاد في الزواج وتسامى فوق تلك المبادئ . وهو يعش وزوجته مع ما بينهما من الاختلاف والتناقض . يعيش الاثنان في بيت واحد منفردين بعضهما عن بعض وتقدم الكنتس للفيلسوف الزاهد يوماً بعد يوم باقة من الزهور فيا ما احلى مثل هذا الاختلاف والائتلاف

وهنا اقف عند هذا الحد لاسأل سؤالاً . ما الذي يجعل تولستوي عظيماً ? باي شيء تقوم شهرته الكتابية ويتعزز . فما هو في كتاباته فصيحاً ولا هو في تعاليمه مبتكراً ولا في رواياته ممتازاً . فاسلوبه دائماً بسيط ناشف وعالباً مقعر ممل . والذي يقرأ روايات هوغو او بلزاك ثم يقرأ تولستوي يتبين له التفاوت بينهم . فالحماسة وسمو التصور والدقة في الوصف واختراع الحوادث والابداع في التنويع والايهام والجمع بين المتناقضات والتفنن في اساليب الكتابة والذكاء والرقة والمجون كلها مزايا تفتقر اليها روايات الروسي الشهير . وهو غير مبدع في تعاليمه لان مبادئه الاجتماعية واقواله بالرجوع عن التصنع المدني الفاسد الى البساطة الاصلية النقية مأخوذة عن روسو . وآراؤه السياسية والعمرانية والاشتراكية مستعارة من كارل مكس وهنري جورج الاميركي . وتعاليمه الدينية هي تعاليم المسيح بالذات

ومع هذا وذاك فانه رجل كبير عظيم . واذا سألتني بماذا تقوم عظمته اجيبك سائلاً : بماذا تقوم عظمة المسيح . فيسوع لم يؤلف المجلدات الضخمة ولا القى الخطب العديدة الفصيحة والقليل الذي فاه به بعيد عن صناعة الانشاء والترسل وخال من الفصاحة وزخرف الكلام ولكن الحقيقة لاتجيء دائماً في المجلدات الضخمة . الحقيقة هي غالباً بنت الايجاز والبساطة

ان عظمة تولستوي هي مثال حقيقي لعظمة المسيح هي قائمة بالاخلاص والصدق والاستقامة . قائمة بالعمل الصالح والمثل الصالح والفكر السديد . فاثنان قالا وفعلا وما المصلحون الصغار سوى اقزام بالنسبة الى المصلح الحقيقي . هؤلاء يتفننون باساليب القول ويفوهون بعبارات رنانة ويشعوذون ويوهمون وهم على تخوم الحقيقة ضاربون . فالفقير الذي يدعو نفسه مصلحاً ويطيل لسانه على الاغنياء مبشراً بالاشتراكية ولكنه يفتح فاه مبهوتاً اذا رأى غنياً سائراً في عربته هو احرى بالجلد اكثر من الاعتبار . لان مثل هذا الفقير المصلح ينبذ التعاليم الاشتراكية ظهرياً متى صار غنياً . والمصلح الفاضل المتظاهر بالتقوى الذي يبشر بالمحبة والاخاء والسلام قولاً ويدس لاعدائه الدسائس فعلا هو اولى بالشنق منه بالتأليه . ولكن الزمان يعاقب هؤلاء فينحدرون الى ظلمات النسيان بعد ان يعيشوا متمرغين في اوحال الكذب والبهتان

ابن سهل الاندلسي

في القرب من بيتي رابية جميلة تحيط بها غابة من الصنوبر كبيرة وتشرف على الكثير من اودية لبنان واحراجه وجباله وادياره . وبالقرب من الرابية قرية صغيرة حقيرة ودير للرهبان قديم العهد . فقصدت المكان ذات يوم ومعي الشاعر الانـدلسي ابن سهل . ذهبنا معاً دون ان نتحدث على الطريق لانني ممن لا يعتقدون بجودة العملين اللذين يعملهما المرء في وقت واحد

وابن سهل هذا من الشعراء الذين صغر حجمهم ونحل جسمهم وقل ادعاؤهم ورقت عواطفهم ولطفت شعورهم وكثرت دموعهم هو شاعر صغير ذو شهرة صغيرة . ولكن كل صغير محبوب . وانا احبه لانه ليس من الشعراء الكثيري القوافي والاوزان القليلي التصور والخيال . ليس من اولئك الذين يهولك لاول مرة طول قصائدهم وتغيظك غرابة الفاظهم وترعجك غموضة اقوالهم وتضحك الشروحات التي هي اضعاف المتن في دواوينهم . ولا هو من اولئك الشعراء العظام الذين ينشرون في بيوتهم الكواكب والاقمار ويثيرون في ابحرهم امواج الافكار ويضرمون في قوافيهم النار . بل هو شاعر بسيط صغير حزين لطيف احبه حباً شديداً مثل قيس العامري وتعذب مثله ايضاً . فهو في رأيي قريب جداً من الشاعر الحقيقي اذا لم يكن هو هو بعينه .

كان ابن سهل بعشق على مـا اظن عشقاً حقيقياً لا عشقاً شعرياً كاكثر الناظمين والمقفيين . قلت « على ما اظن » لانني لا اعرف عن حياته الخصوصية شيئاً وهو لم يحدثني عن نفسه عملاً بعاطفة الحشمة التي توازي فيه عاطفة الحب . ولا يخرج في كل ما انشده عن موضوع واحد شغل قلبه طول حياته واذاقه اصناف العذاب -- هذا اذا صدقنا ما يجهر به في قصائده .

ينبغي للشاعر ان يعيش حقاً قبل ان يشعر . ينبغي له ان يختبر الحياة ومظاهرها قبل ان يصاهرها . وان يشقى ويسعد قبل ان يزف الى العالم بنات شعره . ينبغي له ان يذوق حلاوة الكأس ومرارتها قبل ان يطلق خياله من قفص النفس . وان الفرق بين شعر ينظم في رابعة النهار مثلاً والدم فاتر بليد وشعر يصبه الشاعر نصف الليل من جنان ذائب ملتهب لكالفرق بين بركة مـاء عكراء وسلسبيل جارٍ في مروج خضراء . اجـل ان الفرق بين الشاعر الذي يخلو في غرفته ويقول : « لنحب كقيس او كجميل لننظم القصائد الغزلية — لنتحمس كعنترة او كالمتنبي لننظم القصائد الفخرية » الفرق بين هذا الناظم والشاعر الذي يخوض عباب الحياة فيحب حباً حقيقياً ويبصر الحق فعلاً فيناضل عنه بيراعه وبلسانه وبعمله هو كالفرق بين الازهار التي نربيها في بيوت الزجاج وتلك التي تنبت وتنور في الحقول عملاً بناموس الله . الاول يتغذى مما هو صناعي كاذب قبيح والثاني ممـا هو

طبيعي حقيقي صحيح . شعر الاول تمثال من الشمع او باقة ورد صناعية وشعر الثاني هو الحياة الشعرية بعينها .

والذي ظهر لي مما انشدنيه صديقي ابن سهل هو ان في ديوانه قد يتبع الربيع الشتاء وقد لا يكون فيه من الصيف غير الهجير فقد زرع المسكين ولكنه لم يحصد . ولذلك كانت كأسه مرة للغاية ولكن المر هذا يستحيل في نفس الشاعر شراباً لطيفاً يلذ طعمه ويسكر شذاه . وخريره بين حصى الاشجان يطرب الولهان . ولا يفوتنك ان الشاعر هو الداء والدواء والمداوي . فاذا شرب كأس الصبابة والشوق والصد وهام على وجهه بضعة ايام يمزج لنفسه بعدئذٍ كأساً اخرى من شعره فيشربها مسروراً فيزيل مذاق الكأس الاولى . وما اشق العاشق واجمله وقد استلقى على مضجعه نشوان من هذه الكاس الاخيرة التي مزجتها له يد الخيال لتداوي جروحات حبه . وعند قراءتي ابن سهل خيل لي ان جروحاته لم تزل تدمي في قصائده .

لنعد الى رحلتنا . فلما وصلنا الى الرابية الظليلة في اصيل النهار رميت بنفسي الى الارض المنية الناعمة تحت صنوبرة شامخة ووقف صديقي الكئيب بين يدي . ولكن جمال الطبيعة امامنا وطيب عرف الصنوبر الغض حوالنا والهواء الشرقي الذي جاء من السهول ماراً فوق صنين . والسنونو الذي كان يغرد في بستان من الزيتون قريب منا والجنادب التي ملأت الغاب

بصريرها كل هذه – وهي ابيات قليلة من القصيدة التي ينظمها الله – انستني في البدء صديقي . صرفت نظري وسمعي عما كان ينشده بشر مثلي .

ولكنني بعد ان استلقيت على الارض مستريحاً ومستروحاً واستنشقت الهواء الذي يمر في البساتين والاحراج فيجني من طيب شذاها مثلما يجني النحل من الازهار . وبكلمة اخرى بعد ان قرأت بضعة ابيات من قصيدة الله الجميلة عدت فقرأت قصيدة من ديوان ابن سهل نعم ان بين شعر الاول عز وجل وشعر الثاني مراحل كبيرة ولكنه يستحق ان يقرأ هذا بعد ذاك ولو ذهبت الموازنة بكثير من حسناته .

فبعد ان ترى اذن كيف اغصان الصنوبر تخفق حين يمر عليها النسيم وكيف تتصاعد منها الزفرات حين يلاعبها الهواء اقرأ هذه الابيات .

يعارض قلبي بالخفوق وشاحه ويحكي امتداداً زفرتي ليل صده

وجاء لتوديعي فقلت اتئد فقد مشت لك نفسي في الزفير المصعد

روض حرمت ثماره وقصائدي من ورقه والاس نبت عذاره

أليس في هذه الابيات شيء من انفاس الطبيعة فضلاً عما فيها من الخفة واللطف والشعور ؟

ثم مثل لنفسك الفراشة الملونة الجميلة التي تتنقل في الشمس على الرياحين وتختفي بين الادغال واقرأ هذين البيتين .

يسائلني من اي دين مذاهبا * وشمل اعتقادي في هواه مبدد
فؤادي حنيفي ولكن مقلتي * مجوسية من خده النار تعبد

اليس فيهما خفة الفراشة وجمالها ولطف حركتها واختيالها ؟
واقرأ ان شئت ايضاً

اهواه حتى العين تالف سهدها فيه وتطرب بالسقام جوارحي

بخده لفؤادي نسبة عجب كلاهما ابدا يدمى من النظر

اخشى عليك الفيض من ادمعي وانت في عيني كما تدري

حقاً ان صديقي الاندلسي كثير الدموع وكنت اود ان انقل للقارئ غير هذه الابيات ايضاً ولكنني اكتفي بالاشارة الان الى ابياته الجميلة عن الربيع وقصيدته المشهورة بمطلعها — سل في الظلام اخاك البدر عن سهري .



الثورة الافرنسية (*)

لو قصد المؤرخ ان يطالع كل ما كتب عن الثورة الافرنسية في اللغتين الافرنسية والانكليزية فقط لصرف زمانه كله في المطالعة . بل انه يموت دون ان يتمم هذا العمل الخطير غير المفيد وقد انقسم مؤرخو الثورة الى قسمين فمنهم من تحرى سرد الحوادث دون تحزب وتحيز ومنهم من الحق بكل حادثة نتفاً من فلسفته السياسية الخصوصية فندد بحزب ونصر آخر وكان اما ملكياً او جمهورياً

اما كارليل الكاتب الانكليزي الشهير فقد حاد عن الخطتين في كتابه المسمى « تاريخ الثورة الافرنسية » فهو لا يطري الجمهوريين كهيوغو ولا يندد بهم كتيارس ولا يتحامل على الملكية بانتقاده اكثر مما لو كانت حكومة جمهورية . بل اراد في تاريخه هذا ان يكون خالي الغرض غير متحيز لحزب من الاحزاب ولكن نيته هذه الحميدة اوقعته في الفتور الذي لا يسلم فيه صاحبه من عدم الاكتراث والانشك ومن كلف نفسه قراءة شيء من تآليف كارليل العديدة يبان له بعد قليل من التفكر ان الرجل عصبي المزاج اسير السويداء والتخمة وقد كان مصاباً بداء آخر اهم من الاثنين لا فائدة من ذكره في هذا الصدد وان

(*) مقالة في انتقاد تاريخ الثورة الافرنسية تأليف توماس كارليل

نتيجة هذه العوارض الخبيثة تتجلى دائماً في كتاباته في شكل من التهكم فظيع والكتاب الذي نحن بصدده ألآن مفعم بمثل هذا الازدراء والسخرية . ومعلوم عند الناقدين ان هذا الاسلوب لا يليق في سرد التاريخ فهو كثيراً ما يشوش المعنى الحقيقي ويجعل القصة البسيطة متشعبة متلونة غامضة لايستطيع القارئ فهمها دون ان يجردها من ثوبها المزخرف الكثير الالوان

ليس من العدل اذاً ان يدعى هذا التأليف تاريخاً فهو خالٍ من الاعتقاد والرأي في الحوادث التي يسبرها ومفعم بوساوس الفيلسوف العديدة التي تروقنا في بقية مؤلفاته وتزعجنا في كتاب دعاه تاريخاً

كتاب يفتقر الى روح جدية لترفعه من طبقة الخلقيات الى طبقة العقليات . ولا نقدر ان ندعو الكتاب رواية لان فصوله غير متصلة بعضها ببعض اذ نقرأ كل فصل بذاته ولا تتولد فينا رغبة معرفة السابق واللاحق . فالكتاب اذاً مجموع مقالات متفرقة في حوادث الثورة* الافرنسية ورجالها مسطرة على قرطاس الفتور والشك بيراعة التهكم والازدراء . ولا رأي خصوصي له في تلك الحوادث واولئك الزعماء سوى انه ينصر تارة الكل وطوراً يقاوم الكل وهذه هي المزية التي خدعت الناقدين في زمن كارليل فانزلوا كتابه هذا منزلة التاريخ في الوقت الذي يجب ان يعد في كتب الخلقيات والوصف . كيف لا ومزاج

المؤلف العصبي ظاهر في كل صفحة من الكتاب فهو يقيس كل حادثة ويحكم على كل فرد له علاقة في هذه الفتنة الهائلة بمقتضى هذا المزاج المركب من السويداء والتخمة والتهكم

ولسنا من الذين ينكرون على الكاتب حق التهكم في الاحايين اذ اننا نعتقد بصلاحية هذا الاسلوب ونعده من الطرائف الجدلية الفعالة التي يقاوم بها الكاتب كل سخيف سقيم . اما تهكم كارليل فحادّ اذا خف وفظ اذا اشتد . وبينما نحن نطالع هذا الكتاب لم نتمالك ان اعدنا الفكرة الى ما كنا نطالعه من نفثات فولتر فاننا نرى بين مؤلفين نابغتين الواحد منهما لاتيني والاخر سكسوني شبهاً عظيماً من حيث اسلوب الكتابة السخري الذي استخدماه في مقاتلة الفساد والظلم والخرافة . ولكن اين تهكم الانكليزي الكالح الجاف من تهكم الافرنسي الوضاح المنير فهذا شبيه ببركان وذاك بمرض عضال مزمن . هذا يهلك مايلقاه عاجلاً وذاك يدخل جسم الفساد والخرافة فيضعفه ويلاشيه تدريجاً . فضلاً عن ان تهكم كارليل خالٍ من الذكاء الذي يزين تهكم فولتر كان كارليل يرعد اذا غضب ويمطر واما فولتر فكان يبتسم ابتسامته المشهورة ويسير بهدو الى غايته المطلوبة

لنعد الآن الى الكتاب الذي نحن بصدده . اراد المؤلف ألا يتحيز في تاريخه وان يكون مع الحق اينما وجد سواء كان في جانب زعماء الثورة او حول عرش الحكومة القديمة . ولكن رغبته

هذه ادت به الى الفتور وعدم الاكتراث والحق يقال ان من لا يكترث لحادثة ما لا يستطيع ان يكتب عنها بدقة واصابة واخلاص . وكارليل يبحث عن اكبر حادثة في العالم كما تبحث صحف الاخبار عن جريمة بيتية او حادثة خصوصية يزول اثرها بعد ان يقرأ خبرها . فهو ابداً يفتش عن الحوادث الطفيفة التي كان الاحرى بها ان تدون في الروايات الغرامية ويستنتج منها نتائج عمومية فاسدة ويصور من هذه صوراً خيالية فظيعة يسأم هو منها في النهاية ويرفع يديه الى السماء صارخاً « امكن ان تخلق ربي مثل هذا الشعب »

وهل دعوة الافرنسيس يا ترى خالية من الحقيقة وهل الثورة بذاتها نهضة فاسدة مضللة . وكيف يتملص الكاتب الفاتر المشكك من لوم الناس الذين حاربوا الثورة او نصروها وبعض بنيهم واحفادهم لم يزالوا حتى يومنا هذا يقاومون نتائجها وبعضهم ينصرونها فلو كانت فاسدة على الاطلاق لامحت اثارها بعد مئة سنة من الزمان . نحن من الذين قلوا بعدم الاكتراث في بعض المسائل الدينية التي لا تولد الا النزاع والشقاق ولكن الوقت لم يحن لنبذ الحماسة السياسية والغيرة القومية فالمرء الذي لا يكترث لامور حكومته يعد خاملاً والكاتب الذي لا يجد خيراً في اي نوع من الحكومات يعد فوضوياً .

ان الحقيقة التي نفصلها عن اخواتها—عن اسبابها ونتائجها—

وندونها معتزلة مستقلة كثيراً ما تغش المؤلف وتضر بالغاية الاصلية التي ينبغي ان تظل نصب عينيه . امـا الثورة في رأي كارليل فلا سابق ولا لاحق لها . هي فلتة اجتماعية لا سبب لها ولا نتيجة هي ضربة من ضربات الله هي مصيبة من مصائب الزمان هي بنت الاتفاق الذي نشأت عنه وماتت فيه هي حادثة معتزلة عن حياة البشر السابقة وعن مستقبلهم . ان عـدداً من الناس ينتسبون الى بلاد تدعى فرنسا قاموا في وقت من الزمن فهاجوا وماجوا وحدث بينهم شغب عظيم وقتال من اجل قوانين ونظامات سياسية جمعوها فلقبوها بالقانون الاساسي . ومن ثم اهلك بعضهم بعضاً وختموا القانون بدمائهم وعادت الاشياء الى عالم النسيان الى ظلمات الزوال . هـذا كل ما يراه كارليل في الثوة الافرنسية فهو لا يكلف نفسه النظر في البواعث التي من اجلها سفكت دماء الالوف من الناس . ومع ذلك هو يحـاول اظهار الفاسد من الصحيح فيها . وكيف يستطيع الـكاتب ان يحكم على احوال امة في عصر لم يكن هو منه بعد ان اهمـل التنقيب في تاريخ الامة الماضي وفي اخلاق الشعب واحواله السياسية والزراعية والتجارية

قد اوجب الاقدمون على المؤرخين ابداء الحكم في كل قضية يدونونها واقاموهم مقام القضاة وبعد ان يدون المؤرخ الحوادث بدقة واخلاص يمحص الصحيح من الفاسد فيها ويستنتج من

ذلك نتيجة تسوغ له وضع قاعدة ادبية فيها نور وهدى للاجيال المقبلة . وقد قام كارليل ببعض هذا الواجب في تدوين الحوادث غير انه اغفل امراً جوهرياً هو ذكر السبب الرئيسي الذي نشأت عنه الثورة فهو لا يرى فيها عملا واحداً يستحق الشكر اذا ذكر ولكن حادثة واحدة فظيعة لاتقدح في نهضة عمومية خطيرة وان تعددت هذه الحوادث المرعبة فالنظر اليها والى اسبابها الاولية معاً لامر واجب على المؤرخ .

ان صلب المسيح بالنظر الى مصلحة الشعب الاسرائيلي عادل في الظاهر وبالنسبة الى البشرية هو جائر فظيع اما الحادث هذا وحده فلا معنى له ولا اهمية .

وان من يقرأ سجلات الحكومة الافرنسية ومعلومات السياسيين والكتاب الذين شاهدوا الحوادث وكانت لهم يد فيها يبالغ لا شك في التعنيف والتنديد بما يدعى «دور الهول» اذا اغفل الغاية الرئيسية التي بسببها ومن اجلها تأسس

ومن كان نظير كارليل سريع التأثر صعب المراس حاد المزاج يحكم على الحوادث هذه بالنسبة الى انفعالات نفسه لا بالنسبة الى الظروف التي نشأت عنها ولذلك لانرى في كتابه الا مجموعة قصائد مدح وفخر وهجو ورثاء قلت مجموعة قصائد لان في اسلوب نثره جمال الشعر وزخرفه فهو يسير منشداً وراء عربة المنتصرين وباكياً في موكب المنهزمين . يرفع اليوم قوس نصر

للقوة المادية ويبني في الغد مذبحاً للشفقة والحنان . وبين هـذه المتناقضات يصبح القارئ حائراً تائهاً . كيف لا وهو يتوقع من المؤرخ اكثر مما يتوقعه من الشاعر . نريد ان نعرف كيف تخفض آلام البشر وشقاؤهم لا كيف ان نندب هذا الشقاء ونرثيه .

ان في حياة الاجيال الماضية امثولة للاجيال الحاضرة والمقبلة والمؤرخ الذي لا يظهر هذه الامثولة فيلهو عنها في وصف البؤس والشقاء لا يخفض شقاءنا ولا يعلمنا شيئاً . ان في اعمالنا اليوم امثولة ثمينة لابناء الغد هي الكنز الوحيد الدائم الذي يرثه عما الخلف بواسطة التاريخ . ومن واجبات المؤرخ المحافظة على هذا الكنز الثمين بعد الوقوف عليه واذا كان ضائعاً بين انقاض الثورات والحروب او مختفياً في بحار الاهواء والتعصب فعليه ان يفتش عنه بصبر وعناء وينيره في الناس مصباح هدى وسلام

ان الحلقة التي تصل الماضي بالمستقبل هي حلقـة الترقي الدائم مما كان الى ما سيكون والحوادث التي تتخللها هي حلقات بعضها يشتبك ببعض وليست متفرقة متشتتة كما يزعم كارليـل والمؤرخ الذي يكمل سلسلة الترقي او بالحري يزيد في توثيقها يخدم الناس خدمة حقيقية . ولكن كارليل لا يعتقد بحياة جامعة شاملة . حياة روحية دائمة يتصل آخرها باولها (*) بل هو شديد

(*) الكتاب الاول الفصل الثاني والكتاب الثالث الفصل الثاني من تاريخ الثورة

الاعتقاد بالتفرد والافراد وقد قال مراراً ان تاريخ العالم هو تاريخ عظماء الناس . على ان الفرد انما هو صوت واحد ينطق باسم ملايين من الناس الصامتين فالرجل العظيم انما هو عظيم بشعبه لا بنفسه هو يستمد معظم قوته مما يحيط به من الاشياء والظروف والرجال هو خاضع كاصغر الناس لناموس الترقي الدائم الازلي بل هو صنيعة هذا الناموس وخادمه المخلص علم ذلك او جهله فلو ولد نابليون في بلاد الصين مثلا وعاش فيها لما كنا نعرفه الان ورب قائل لو ولد نابليون هناك هل كانت حصلت فرنسا على المجد الذي اكسبها اياه ؟ أجيب بالايجاب اذ لو لم يولد نابليون فيها لنشأ غيره وهذا ما يجعلني شديد التمسك بما يدعى ناموس الترقي الدائم الذي يقضي بوجود رجل عظيم كل فترة من الزمن لتأييد هذا الناموس وتعزيزه

ان القنوط والشك واليأس والفتور كلها طبائع تظهر في كل صفحة من هذا التاريخ وفي اسلوب انشائه الجميل الفخيم وقد قلت ان كارليل هو اشبه بالشاعر مما هو بالمؤرخ والشاعر لا يكون استاذاً في الاقتصاد السياسي ولا فيلسوفاً في العمران فهو اذا قرأ سجلات الحكومة الافرنسية ومعلومات من شاهدوا الثورة يثور ثائره الشعري فيحصل فيه انفجار اشبه بالبركان ويدهمنا بحمم تحرق ولا تنير . فتسود منها افاق البصيرة وتظهر اشباح ابطال الثورة التي يصفها وهي تتهادى في الظلمة غير

المتناهية . ولكن ماهي نهاية هذه الاشباح وما هو غرضها ولماذا اشغلت فكر كارليل فألف فيها مجلدين ضخمين ألأنها كانت تندب وتنوح عبثاً وتقاتل وتحارب باطلاً وتصيح وتنادي دون غاية ودون مرمى ؟ ماذا فعلت هـذه الاشباح ؟ اكلها الزمان فتلاشت من ذاكرة الانسان . بلعتها الظلمات فامحت من لوح الحياة . هذا جواب كارليل وزبدة فلسفته المختبأة في اكمام الفصاحة واشواك البيان . وبناء على ذلك لا يحق لتأليفه ان يدعى تاريخاً . وانما هو ملحق تصويري لتاريخ الثورة الافرنسية وان فصوله لأشبه بصور رسمتها يد ماهرة . صور تساعدنا على الدخول الى تاريخ الثورة الجدي ولكن لاتنبئنا به كثيراً فهي من هذا القبيل اشبه بالصور التي تزين بها الروايات التاريخية تحملنا الى بعض ما يقصده الكاتب ولا تكشف لنا الستار عن القصة بكاملها

ومن جهة فلسفية يمكننا ان نقول ان المؤرخين اثنان الاول يعتقد بالنشوء والارتقاء الاجتماعي بالترقي الدائم بالصعود المستمر . والثاني لا يعتقد بشيء من هذا . فلسفة ذاك في العمران شبيهة بخط مستقيم عمودي وفلسفة هذا بالدائرة صعود البشر في رأي الاول دائم مستمر وفي رأي الثاني محدود تصل الشعوب فيه الى نقطة لا يستطيعون ان يتجاوزوها فيهبطون عائدين الى الهوة التي خرجوا منها . وهم في هذا يشبهون الحية التي تأكل

ذَنبها . ومثل هذا المؤرخ الذي لايكترث بالاشياء ولا يحترم روح التاريخ ولا ينظر الى ماوراء الحوادث يجرد على الفساد والظلم سلاح التهكم والازدراء ولا يفوز بغير الهدم والتدمير . ومثال ذلك ان كارليل يشغل فكرته وقريحته غالباً بطفيف الحوادث وتافهها شأن القصصي او الكاتب الاخلاقي. (*) فضلا عن انه لا يعتقد في تاريخه هذا بغير الزوال الدائم .

كل بيت للهدم ما تبتني الور　　قاء والسيد الرفيع العماد
واللبيب اللبيب من ليس يغتر　　بكونٍ مصيره للفساد

والمؤرخ الدهري يختلف عن الفيلسوف الدهري في ان هذا يعتقد على الاقل بازلية المادة وخلودها وذاك لا يعتقد بخلود شيء . انما حياة الاشياء والمخلوقات الى اجل مسمى . بل هي خيال زائل يظن ذاته حقيقة ثابتة دائمة . في مثل هذه الاقاويل يبرهن كارليل على ان الثورة الافرنسية لاتؤثر ابداً في تاريخ الشعوب والعمران ولن تؤثر حتى في احوال اوروبا السياسية والاجتماعية .

وفي الفصل الثاني من الكتاب الاول يرفع الستار حتى النهاية عن فلسفته الاجتماعية الدهرية ومن يقرأه مفكراً تنجلي له النتائج التي استخلصناها منه وهي ان تعظيم الصغائر يلذ متى كان النافخ في فقاقيعها كاتب عظيم ككارليل ولكن الحفول في

(*) الكتاب الاول الفصل الثاني من تاريخ الثورة

الصغائر يبعدنا عن الجوهر الحقيقي .وان الفكر الروحي الداخلي زائل لا ازلي هو ولا خالد بل هو يتغير ويتحول ويتلاشى كالمادة صحيحاً كان او فاسداً . وان النهضات الاجتماعية السياسية تظهر فجأة واتفاقاً لا بعد ان تنضج في خفايا الزمان . وان الفلاسفة مخطئون على الاطلاق في مبادئهم الاقتصادية وفلسفتهم الاجتماعية . وفي بقية الفصول دليل واضح على كل هذا . وفي ما كتبه عن ميرابو بالاخص وعن ليلة رابع اب دليل انصع واوضح ومعلوم ان مجلس النواب الغى في تلك الليلة الشهيرة في مدة ساعتين من الزمن نصف شرائع الحكومة القديمة وقوانينها . واذا اراد القارئ ان يطلع على مثال جلي من تهكمه الفظ وانتقاده العنيف الشديد فليقرأ الفصول التي يصف فيها فرار الملك والمحالفة الوطنية في شأن دي مار والمشاغب التي نجمت عن قلة الحنطة واحتكارها . وكم مرة ردد في كتابه عن مجلس الامة الذي ذشل فرنسا من الهوة التي كادت تبتلعها قوله ان « قد اجتمع اعضاء المجلس ليصلحوا قواعد الافعال الشاذة »

قد لا يحترم كارليل الا القوة المادية وكثيراً يكبر نزوات الانسان واهواءه ويمجدها . فهو لا يرى في نهضة الافرنسيس على ارباب الظلم والظلام سوى خمسة وعشرين مليون معدة فارغة وخمسة وعشرين مليوناً من الالسنة الملتهبة حماساً الملتوية جنوناً في عالم من الفساد مضطرب مدلهم . فالخبز في مذهب كارليل هو

سبب الثورة ونتيجتها هو الاول وهو الآخر . واما المؤرخ الذي يعتقد بالصعود المتواصل بالترقي الدائم فهو لا شك يرى ان ليس بالخبز فقط يحيا الانسان .

ان بين الكمالات النظرية والاختلال الحقيقي في حياتنا الاجتماعية علاقة خفية تكاد لا تنظر بالعين المجردة ولا تتجلى دقائق الحكمة فيها الا لمن خصتهم الطبيعة بشيء من البصيرة والذكاء وبنفس صافية شفافة صحيحة تنعكس فيها الاشياء انعكاساً تاماً جلياً صحيحاً . ولا شك ان بين ما هو كائن في تصوراتنا وما هو حادث في حياتنا فرقاً ظاهراً ومع ذلك فان هذا الا انعكاس ضعيف مختل لذاك . كأن العقل البشري اليوم اشبه بمرآة مكسرة لا تنعكس فيها الاشياء كما ينبغي . والا يجوز لنا مع ذلك ان ننفخ في الحوادث روح الكمالات النفسية فتبقى مدفونة فيها الى ان ينشرها الزمان فتظهر ولو بعد الوف من السنين بمظهر من الحياة سام نقي جميل « الا نستطيع ان نمزج القليل مما هو كائن في تصوراتنا بما هو كائن حادث في حياتنا . الا نستطيع بكلمة اوضح ان نزرع فيما نقص وفسد من الاعمال بذور ما تعالى من الامال . لتنبت وتنور ولو في جيل بعيد بل آتٍ من الاجيال .

هذه سؤالات يضحك منها كارليل الساخر بامال الناس المستخف بتشوقات الروح الكمالية . فهو لا يمنحنا شيئاً ولا يدعونا

الى شيء ولا يؤملنا بشيء . القوة الحيوية المادية التي تظهر في عظام الرجال وابطال التاريخ انما هذه في مذهبه كل شيء .

انا آكلك وآخر ياكلني . برافو ! والاخير من البشر فريسة من يكون ؟

ولا نظن ان المؤلف حاول ان يضع تعليماً جديداً في الثورة الافرنسية فالمورخون كما سبق القول ينصرون الثورة اويقاومونها اما كارليل فشاء ان ينصرها ويقاومها معاً . ولكن هي التخمة وعرض بل مرض اخر ولّدا فيه السوداء فاصيب بالفتور والشك واصبح لا معها ولا عليها . ولا نظنه ولوشاء يستطيع ان يؤسس حزباً ثالثاً غير متحيز لانه في كل ما كتبه عن الثورة لم يبد قط رأياً وضعياً ثابتاً يتخذه الحزب دستوراً لاعماله بل كان كريشة في مهب الريح طوع تأثراته واسير وساوسه .

هل الملكية لازمة نافعة للناس . كلا . انها مبنية على اساس فاسد. هل الجمهورية اصلح منها . كلا . فهي قد نشأت من الظلمة وشيدت على جثث الملايين من العباد . علينا اذاً بالفوضى هذي هي نتيجة فلسفة غير المتحيزين من المؤرخين .

وقد علمنا التاريخ حقيقة نود لو لم تكن وهي ان من اراد تأسيس حزب او وضع تعليم او انشاء ديانة ينبغي له ان ينظر الى وجه واحد من المسألة فقط . اذا شاء ان يكون صريحاً في رأيه حازماً في قوله ثابتاً في عقيدته وبكلمة اخرى اذا شاء ان يكون

مؤسساً لحزب او تعليم او دين ما عليه ان يكون متحزباً متعصباً مأخوذاً بدعوته مهما كانت . عليه ان يكون اعمى اصم في ما سوى ذلك . فالنفي والشك والتردد وعدم الاكتراث والفتور هذه لا تؤسس ممالك واحزاب وديانات . وهذه كلها من مزايا كارليل المشهورة . فقد احب الا يكون متعصباً لا مع الثورة ولا لها فجاءنا بتعصب جديد خصوصي لا يضر بالحقيقة الجوهرية ولا ينفعها وقد تلذ لمن تتوق نفسه الى الجديد من الاشياء والاراء . وبما انه توسع في الصغائر والتوافه التي تتعلق في الثورة ولذ له سردها بل نظمها في نثره الفخيم فهو اشبه بنور تضعضعت اشعته المرسلة في كل الجهات ولم تتعدَّها الى ما وراءها من الجوهريات . وانه لو صوب نور مصباحه الى غرض واحد في جهة واحدة لارانا في الزوايا شيئاً من الحقيقة الثابتة الدائمة . لو فعل ذلك لفاز بوضع تعليم جديد او تأسيس حزب ثالث ينظر في شؤون الثورة نظر الغريب عن هذه الارض ويقيس منافعها واضرارها بغير مقاييس هذا العالم .

اما التنديد برجال الثورة والاستياء من النهضة بجملتها والنفور من هولها والفرار من نارها المحرقة المنيرة فهذه ذنوب لا تغتفر للمؤرخ اذا اقترفها . فالطفل يولد في الالم والعذاب والجمهوريات تنشأ في الثورات والحروب . الأم تتالم ساعة الولادة وكذلك الامة . يموت الانسان والعذاب ملازمه ويولد

الطفل والالم حليفه . و كذلك الحكومات بانواعها والامم . فلا تموت حكومة بسلام ولا تنشأ حكومة بسلام

ولا بأس في الختام من قصة صغيرة اوردها فقد ذكرتني بها مطالعة هذا الكتاب الذي اود ان يطالعه كل من يحسن اللغة الانكليزية من قراءي . ورب قائل ولم تدعونا الى مطالعته بعد ان تحققت فساده وبان ذلك الضرر الذي ينجم عن اقتباس الافكار التي جاءت فيه . اريد ان يقراءه كل من كلف نفسه قراءة هذا البحث ليستطيع ان يقابل بين الاثنين . لا اريد ان يرتأي احد رأيي دون ان يشغل قليلاً فكره . لنعد الان الى القصة .

اراد احد الملوك الاقدمين المولعين بالعلم ان يطلع على تاريخ الامم فطلب احد وزرائه وامره بتأليف او جمع تاريخ عام فذهب الوزير وغاب سنين ثم عاد الى الملك ومعه عدد من الجمال محملة كتباً . فوقف امام ملكه وقال « ها هو التاريخ الذي تطلبه» ولكن الملك وقد هالته احمال الجمال امر الوزير ان يختصر التاريخ فغاب هذا ثانية وعاد بعد سنين ومعه جمل واحد فقط يحمل التاريخ المختصر . اما الملك فكان قد ضعف بصره ووهنت قواه فامر الوزير ان يختصر ايضاً فغاب الوزير للمرة الثالثة وعاد فرأى مليكه يتقلب على فراش الموت فلما رآه الملك قال « آه ثم اواه سأموت قبل ان اطلع على تأريخ الامم » فاجابه الوزير معزياً

« لاتقل ذلك يا مولاي فقد احضرت لك مجموعة صغيرة تنبئك عن كل اعمالهم باختصار غريب وها هي » ثم اخرج الوزير من جيبه ورقة صغيرة وقرأ بصوت مرتفع : « هاك يا ملك الزمان تاريخ شعوب الارض مختصراً : فانهم تنفسوا فتنافسوا فعرقوا فاتوا » .

وتاريخ كارليل المقسوم الى عشرين كتاباً وكل كتاب مقسوم الى فصول لم يفدنا عن الثورة الافرنسية اكثر مما افاد الوزير مليكه عن تاريخ شعوب الارض فالكلمات الاربع التي تؤلف تاريخ الوزير تكفي لتأليف مثل هذا التاريح دون ان يفوتنا منه شيء كثير . ولو شاء كارليل ان يختصر لقال مع الوزير عن الافرنسيس « قد تنفسوا فتنافسوا فعرقوا فماتوا » ولكن في الامة الافرنسية ما لا يموت — في الامة الافرنسية من نتائج الثورة العظيمة ماتبقى اثاره بادية حية نامية في ترقي الامم والناس



بذور للزارعين

(١٤)

بذور للزارعين

ان حسنة واحدة تأتيها . لخيرٌ من ليال بالصلاة تحييها .

ان الامين وان كان كنودا . لخير من المدغل وان كان هجودا

ان التعبد لفي الصالحات . لا في تمتمة الصلوات .

وربَّ صغار يلعبون . اصدق ايماناً من شيوخٍ يتورعون .

وربَّ محسنة في موبقات الوجود . اصح ديناً من راهبات السجود .

وربَّ كافرٍ عمَّالٍ للخير . احبُّ الى الله من راهب في الدير .

السالكون عملا وفكرا . خيرٌ من السالكين ذكرا .

انت السالك . يا من تطابق بين اقوالك واعمالك .

الندامة حباً بالغفران . كالاحسان حباً بالشكران .

وقد قال بلزاك — الندامة الشهرية . انما هي خباثة ابدية .

المواساة خير العبادات . وممرضة تضمد جرح الشرير خير ممن يصلون من اجله .

ان روائح الادوية عند من احبت ان تخدم الله لاذكى من رائحة البخور . والنور الضئيل المنبعث من عين المريض الذابلة لاجمل من نور الشموع في الهيكل .

لنخدم الله بالاعمال . ولنسبحه بالاعمال

* * *

الحكيم من وجد سعادته في عمله فلا يشغل فكره ولا يضيع وقته في التفتيش عنها في البيت او في المدينة او في الجبال او في قصور الوهم والخيال . ومن يتلاهى قانطاً في تشريح نفسه وافكاره فليقف على اسباب بؤسه وشدته كمن يزرع غصناً من الورد ويقتلعه كل يوم ليستطلع حال نموه . غصن نفسك تعهده بالتربية بدلاً ان تقتلعه صباحاً ومساء لترى ما اذا كانت ظهرت فيه جذور السعادة ام لا . عملك واظب عليه فتنسى انك سعيد وهذه لعمري السعادة بعينها .

* * *

كل عمل يساعد على نمو قوى الانسان الحيوية وحفظها جسدية كانت او عقلية او روحية وعلى حصر لوازم الحياة فيما يتطلبه الناموس الطبيعي فقط هو عمل صالح شريف .

* * *

الحكيم من صار الى غرضه دون ان يلوي على شيء مما حوله من اشواك الضغائن والاحقاد . ومن اشباح اللؤم والفساد . سر أخي في امان الله ولا تقف بعد ان تخطو الخطوة الاولى . لا تقف فتُسبق . ولا تتلفت وراءك فتسقط . نحن في زمن قد يكون الوقوف فيه تقهقراً . سر في امان الله وخذ هذا البيت من الشعر ردده في طريقك كلما اجتزت عقبة من العقبات .

وما تجهمني ليل ولا بلدٌ ولا تكاءدني عن حاجتي سفرُ

العمل هو يد السعادة اليمنى ويدها اليسرى الاقتصاد

* * *

لتكن غايتك اكبر من مقدرتك فيصبح عملك اليوم احسن من عملك البارح وعمل الغد احسن من عمل اليوم

* * *

الفضيلة الكبرى في الاعمال هي ان يكون كل عمل بذاته الغاية والواسطة . ان تكون لذته فيه لا في نتيجته .

* * *

السر في النجاح في اي عمل كان هو ان تقضي نصف وقتك مفكراً ونصفه عاملاً فتعرف اذ ذاك غرضك وتسير تواً اليه . تعرف اذ ذاك الطريق القويمة الى محجتك فتسلكها . وكم اناس يفشلون لانهم لا يعرفون حق المعرفة محجتهم او لا يهتدون اذا عرفوها الى اقرب واقوم الطرق اليها . فهم ينكتون في التراب كالدجاج ويكثرون من الحركة التي لا بركة فيها ومن الصياح الذي يخفل اطيار الفلاح فيثيرون الغبار ويزعجون الجيران . والجوهرة التي يطلبونها تختفي اثناء ذلك تحت التراب الذي ينكتون فيه ويصيحون . فلو عملوا كالحكماء لا كالدجاج فبحثوا على مهلهم مفكرين لما كانوا يزعجون احداً بغبارهم وصياحهم ولما كانت حركتهم قليلة البركة . لو فتحوا عيونهم وتبصروا لما كانوا يدوسون بارجلهم الجوهرة التي يطلبونها .

ان مظاهر الحياة وحدودها عند الغربيين اليوم لواضحة جلية . ولا ظل يصل طرفي البياض والسواد في حالهم الاجتماعية . لا غسق يصل ليلهم بنهارهم ولا طريق تجمع بين عمرانهم ودمارهم فهذه عندهم منطقة الغناء . وتلك منطقة الفقر والشقاء . هذه سهول العمل والتجارة . وتلك حزون البطالة والقذارة . هنا فريق العلماء والحكماء . وهناك جموع خيم عليهم الجهل والتعصب والبلاء . فالفقير عندهم هو الفقر مجسداً . والغني هو الغناء موحداً . والغريب في امر فقرهم وغنائهم هو ان البقرات العجاف اللاتي تاكلهن البقرات السمان كل يوم يتضاعفن بالنسبة الى تعدي هولاء عليهن . هذه حال الغربيين النازعين اليوم الى الاشتراكية واما حالنا فليلنا لا يعرف من نهارنا . وعمراننا لا ينفصل عن دمارنا . انما نحن ظل الاشياء لا فقر عندنا ولا غناء ولا علم يذكر ولا جهل ولا عمل ولا بطالة . غريب امر الشرقيين فما هم في حياتهم سوى حرف وصل بين الاضداد . وقد تكون هذه حقيقة الحياة وقد يكون الحق في جانبنا . ولكنا ازاء الغربيين الذين بدأوا يزاحموننا في ارضنا نؤكل لا محال كما تؤكل عندهم البقرات العجاف كل يوم اذا كنا لا نخرج من ظل الاشياء ونشمر عن ساعد الجد والعناء .

* * *

ان البلاء لمستقر . في جهاد الانسان المستمر .

ان رأس الشقاء البشري . في هذا الازدحام الحضري .

احب في صديقي الاباءة . اكثر من المروءة . احب منه الانفة وان كان فيها عنيفاً . ولا احب الصغارة وان كان فيها لطيفاً .

الصديق الابي الانوف وان جمد وجه وداده . خير ممن يقبلك متشوقاً كل مرة يراك وقلبه كتربة اجداده .

الحر الكريم يظل صديقك وان عاداك . والخسيس اللئيم . هو عدوك وان والاك .

لا تدقق في درس اخلاق صديقك « وفتلته » . ان كنت تطمع في دوام محبته .

لا تتوقع من صديقك ان ينصرك اذا كنت مخطئاً . ولا ان يجد بامرك اذا كنت فيه بطيئاً .

* * *

الصداقة الحقيقية مثل كل عمل عظيم هي التي يشترك فيها القلب والعقل والضمير . فالشعور اذ ذاك يكون غذاءها . والادراك مصباحها . والعدل ميزان الاثنين . وان رجحت احدى كفتي الميزان فمسير الصداقة الى الامتهان . وتصبح اخيراً كعروس الشعر او كبنت الحوان اي انها تصير اما خيالية واما مادية .

فتعيش يومها مشوهة اما في الحواس واما في الاوهام . وفي كلا الحالين . لا عدل ولا لذة فيها للصديقين .

* * *

الحياة مضيق بين ابديتين . ووميض برق بين غيمتين غامضتين

اذا تخاصم من اصدقائك اثنان . لاتسبق في الاصلاح بينهما الزمان . فهو للعداء . خير دواء . وان عاقبة الاسراع في وصل حبل الوداد . هي غالباً كعاقبة الجرح المندمل على فساد

***

اشرف الحب حب من لا يدعك تشعر بولائه . قبل انقضائه فهو لا ينقدك وداده في السراء . ليتقاضا كه مع الفائدة في الضراء

***

شر الاصدقاء صديق لا يعتبرك من اكفائه فان ظن نفسه اكبر منك يهينط في حبه وتقلبه . وان كان اصغر منك يغيظك في تودده وتحببه .

***

احب من الجمال ما كان فيه شيء من القباحة . ومن الحركة في الجمال ما كان فيها كياسة وملاحة . ومن السكوت في الجمال ما كان فيه كثير من الفصاحة

افضّل ان اشاهد كل يوم عشر مرات سحنة منكرة وفيها

بهاء وغرابة وذكاء . على ان اريِ مرة في الشهر طلعة جميلة خاسئة والنفس فيها جدباء

***

من نهج لحاجاته المادية وغاياته الدنيوية منهج التدين والورع الكاذب والرياء والتنطع كان بعيداً عن الدين وعن الله بعد هذه الارض عن ابعد السيارات من الشمس

الدين الحقيقي ما انار القلب من الانسان والضمير فيهديه في الحياة الدنيا خير طريق الى خير الابواب في الاخرة . ومتى كان ضمير جاري كنور الشمس حياً نقياً وقلبه كوردة تفتح في الفجر لتستقبل ندى السماء لا فرق اذ ذاك عندي ان ذكر مع الدراويش او سجد مع اليسوعيين او اغتسل في نهر القنج مع البوذيين . فهو المؤمن الحقيقي ، هو الصادق في دينه . هو رجل الله الامين

***

بحث الفلاسفة الاولون في الكون والحياة فبدأوا بابحاثهم من العلة الى المعلول من المركب الى البسيط من الاعلى الى الادنى . بحثوا فعللوا فاعتلوا فماتوا وما اورثوا العالم سوى الاوهام والشكوك . وعلماء اليوم يقلبون الآية فيبحثون في الحشرات والجواهر الحية والمكروبات ابتغاء الوصول الى ما بدأ به فلاسفة الماضي . وهؤلاء يحللون ويركبون ويعللون فيعتلون فيموتون

قبل ان يصلوا الى ما يزيل شيئاً من الاوهام والشكوك . النتيجة اذاً واحدة ان صعدنا من الادنى الى الاعلى او سقطنا من الاعلى الى الادنى . الكون كيفما نظر اليه العالم يظل فوق علمه . ان هذا السر العظيم وان رصدت نجومه بالتلسكوب او روقبت جواهره الحية بالمكرسكوب او تحللت انواره والوانه بالسبكتريسكوب يظل سراً عظيماً يموت راعي الغنم فيه كموت سقراط او سبنسر . وسكوت القبور يناجي سكوت النجوم والانسان بينهما خيال يزول

المتعصب على رأس الاشهاد وان كان من طبقة واطية من الحيوانات الناطقة هو خير من متعصب يتظاهر بالتساهل .

المتعصبون فصيلة غريبة من الحيوانات ذوات الاثنين ومثل سائر الفصائل الحيوانية فيها انواع واشكال . واهم ما هو معروف منها اليوم ما كان كالثعلب او كالذئب او كالبزاقة او كالدقاب . فالاول جبان يتعصب في ظلام الليل ويخاف في ضياء القمر خيال ذنبه . والثاني يفترسك ويفترسني لو كان بامكانه ان كنا لا نرى ما يراه او لا نصلي وراه . والثالث لا يهمه من العالم سوى صدفته ونقطة المطر التي يبل فيها قرنه « وحافة » القديس الذي يلتجئ اليها من نور الشمس . وما سوى ذلك فهو لا يدرك شيئاً من وجوده او مما فوق او تحت وجوده . والرابع يظل في الفضاء مترفعاً مترفضاً الى ان يشتم رائحة الجثة فينقض عليها كما لو كانت

من المن والسلوى . وهناك نوع آخر قديم العهد . . . فهمت معنى اشارتك وساقف عند هـذا الحد في التفصيل . . . على ان ذاك المخلوق الشريف الجبار الذي يتعصب لحق الله ودين الله. فوا أسفاه قد انقرض نوعه من زمن طويل ولم يعـد لك ان ترى منه الا العظام في الانتكخانه .

* * *

الناس اشباح تحركها الاغراض والاهواء . وتتقاذفها في بحار الحب والبغض الرياح والانواء .

الدين دينان دين نظري ودين عملي . فالدين النظري انما هـو رغبة الانسان في دوام الحياة الروحية وخشوعه امام سر الاسرار العظيم وادراكه ان هناك صلة خفية تربطه بابديتين الهيتين. ابدية وراء المهد وابدية وراء اللحد . والدين العملي الحي انما هو العمل بنواميس الطبيعة اي شرائع الله المنطبعة على لوح قلب كل انسان فان كنت يا اخي من الذين يتقون الله فلست اذًا من الخاسرين . ضع آمالك في هذه النجوم فوق راسك وفي هـذه القبور تحت قدميك وسر في طريقك يا اخي ولا تبالِ . لا تبال بمن يتجنون عليك باسم الدين ويهددونك بغضب السماء وبنار الجحيم اذا كنت لا تعمل بتقاليدهم ولا تسجد لاصنامهم ولا تتمتم صلواتهم . سر في طريقك ولا تبالِ . اما اذا كنت لا تستطيع ان تعزز جانب نفسك وحريتك فتنصر الحق على الباطل في كل وقت ومكان

وفي اي حال كان — اذا كنت لا تستطيع ان تحافظ على نور الله في قلبك وعلى عـدل الله في ضميرك فالاوفق لك ان تعود الى القطيع الذي انفصلت عنه . عد الى الحظيرة التي خرجت منهـا فكلب الخراف هناك يحميك في الاقل من ذئاب الدهريين

* * *

ان فيّ وفيك شيئاً من السديم وشيئاً مما وراء السديم . بل فيّ وفيك سر ابدي عظيم . لا يكشف الحديث من العلم غامضهُ ولا القديم .

الجرذان في قبوك لا يعرفون ما اذا كان القبو ثابتـاً الى الى الابد او الى حـين . ولا يعرفون من شيده ولماذا . انما هم يعيشون في زاوية منه او بالحري في ظلماتـه فيجدّون في طلب رزقهم ويدافعون عن انفسهم ويهربون من وجـه الحيوانات المتسلطة عليهم فيضاعفون نسلهم ويضاعفون في ذلك عذابك . هـذه زبدة حياتهم ومصلها في القبو الذي بنيته لنفسك لا لهم. والبشر في هذه السيارة الصغيرة التي تدعى الارض انما هم — جل شأنك — كالجرذان . فاننا نعمل كاحقر المخلوقات في الظلمات ولا نعرف ما اذا كان العالم ثابتاً الى الابـد او الى حين . ولا نعرف الغاية التي من اجلها شيد هذا القبو الذي يدعى الارض ولا الغاية من وجودنا فيه فضلا عن قصد البناء العظيم الذي . . . هس ؟ انما نحن كالجرذان

على الاديب ان يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه . وكم نقرأ في الجرائد اليوم من النصح والارشاد والتنديد والانتقاد فلا نكاد ننتهي من قرأة المقالة حتى نقف مُدهشين عند اسم كاتبها العظيم ما شاء الله ! وما ضر هذا الناقد الناصح المرشد لو اختلى في بيته وقفل الباب جيداً وسد النوافذ بالقطن او بورق الخرنوب وبدأ بنفسه اما ينبغي ان تسمع اذنه صوته ويشعر ضميره بما يجترئ عليه قلمه ؟ اعوذ بالرب الاحد من حارض نقد . ومن النفاثات في العقد

لكل نوع من المادة مزية لا تنفصل عنه . لكل نوع منها فضيلة من شأنها الصعود من الاوطى الى الاعلى . فالغـاز مثلاً يتبدد فيتجمد في الفضاء والماء يتبخر فيتكون غيوماً والازوت يحل في النبات فينمو ورقاً وازهارا وثماراً . ويحل في ذوات الاربع فتتنفس وتنشأ وتمشي . ويحل في الانسان — وهذه هي العقدة التي لا يحلها عقل الفيلسوف ولا يقطعها سيف الاسكندر فان كان في الازوت جرثومة الفكر والخيال هل تكون هـذه الجرثومة كامنة يا ترى في اوراق الشجر وفي غريزة الحيوان كما تظهر نتائجها في حياة الانسان

* * *

ان الغناء الحقيقي لفي الاشياء التي يستطيع المرء ان يستغني عنها . وساتولى بنفسي شرح الاية هذه المرة . اذا كنت فقيراً ولم يكن لي رغبة في نوافل العيش وكشا كشه كالعربات والخيل

المطهمة والطنافس والرياش ودواعي الرفاه كلها فانا اذاً الغني • وان كنت متمولاً و كان دخل اموالي لا يكفي لأدب المآدب واحياء ليالي الرقص والغناء بل لا يكفي لدفع اجور خدامي وعبيدي وساحة خيلي فاني اذاً لمن الفقراء • كم من الاشياء تغنينا اذا استغنينا عنها وكم من الاشياء تفقرنا اذا طلبناها كالاطفال واستخدمناها كالمجانين !

***

في زخارف المدنية المعبودة • مئة مصيبة منقودة

قد سئمت الخير الذي يعمله الاتقياء ابتغاء مرضاة الله . قد سئمت الاحسان الذي يتخذه بعضهم مهنة للارتزاق . فما اكثر مثل هؤلاء المحسنين في العالم وما اقل الاحسان الحقيقي الخالص من كل ريب . الصافي من كل عيب . قبل ان تكون محسناً ياهذا احسن سلوكك وادابك . قبل ان تعمل مقدار ذرة من الخير كن انت من بنيه . هناك امرؤ احسن من المحسن وهو الذي يعيش لنفسه حياة صالحة صافية . هو الذي لا يعرف الخير عندما يصنعه هو الذي لا يبتغي مرضاة الله ولا مرضاة الناس ولا الشهرة ولا المجد من بره واحسانه . عد الى كتب العرب واقرأ فيها قصة عكرمة الفياض ياسيدي الامير ولا تنسَ ان تقرأ ايضاً قصة عمر ابن الخطاب والعجوز . ومتى حملتك الحمية والغيرة الى الاحسان فاعمله ليلاً وسراً كي لا يراك احد من الناس فيشوه برك بمديحه

واطرانه . انقذ الغريق والبس ثيابك وامشِ . فان اللذة في العمل لا في نتيجته .

...

كلنا في هـذا المجتمع الانساني ضائعون . كل منا كالولد التائه في الغاب يغني على ليلاه لينسى خوفه وشجاه . لكل منا نغمة يترنم بها فتنسيه نوعاً حقيقة حاله . تشغله قليلاً عن نفسه . كلنا بكلمة اوضح مستعبدون للعرض بعيدون عن الجوهر . كلنا نعيش للمنقول لا للمعقول للمصطلح عليه لا لما هو اصلح منه . الطف اللهمّ بعبادك .

من اجلّ ما قرأته في الكتب المقدسة فاتحة القرآن . فهي صلاة جديرة بان يرددها بقلب حي كل انسان كل يوم في السنة .

« اياك رب العالمين نعبد واياك نستعين . اهـدنا الصراط المستقيم » -- اي والله فان الانسان وان كان من ارقى البريطانيين او من ارقى العثمانيين ان كان من باريس او من نويرك او من اطنه او من داهومي هو في اشد حاجة الى الهداية اليوم مما كان في ايام النبي داود . او في عهد عاد وثمود .

...

ان من يكتفي بمسحة من العلم والحكمة كمن يكتفي بغسل وجهه اذا دخل الحمام . وليس بالامر الصعب على مثل هذا ان يفوز بقصب السبق اما في الثقالة واما في الرعونة . واذا ركب

الى غرضه فرس سيبويه يعود حاملاً في يده القصبتين • فنقرأ اذ نراه التعويذتين !

• • •

قل تبارك السر الذي فيَّ ولا تحفل بضجيج الناس وضوضاء الامم • عش قنوعاً هادئاً ساكتاً معتزلاً وواظب على نظافة العقل والقلب كما تواظب على نظافة الجسد فلا تكون من الخاسرين • تلاهَ في العمل والسمو عن عقبات الحياة وهمومها • وبكلمة وجيزة كن مثمراً ولو بين القتاد • فلا تحزن يوم يجيئك ملك الحصاد •

لا يختلف اثنان في ان الاولاد يطلبون الاشياء دون ان يدركوها فيلحون ويلبطون ويصرخون وهم لا يعقلون • ومن الرجال الراشدين من هم ايضاً كالاولاد فيطلبون ما لا يدركون من الاشياء ويصرون على امورهم ويلبطون على طريقتهم الخاصة اما بالايدي واما بالارجل واما باللسان وهم ايضاً لا يعقلون • تراهم يروحون ويجيئون دون ان يعرفوا من اين والى اين ويركضون ويضجون وهم كالاولاد لاحكام الحلاوى والقضيب خاضعون • هذه خزانة الكعك والحلواء التي يعرفها الاولاد وهذه العصا التي لا يجهلون طعمها اذا هم اكثروا من الرواح والمجيء الى الخزانة • وكم اناس لو كسرت الحكومة عصاها يموتون امام خزانة اللذات شهداء الاهواء والشهوات • كم اناس يسرقون الخبيص ويكبرون على البوليص • اعوذ بالرب الجبار • من

الصبيان الكبار •

***

العواصف تقوّي العواطف وتثيرها • فالنبت الذي تلويه الاهوية وتطويه يكون اشد من ذاك الذي ينمو وينور في بيوت الزجاج •

***

الضغط على الانفس والعقول الى حد محدود يولد من القوى الكامنة ما لا يخلو من سمو الفكرة والادراك • واما اذا تجاوز هذا الحد فيولد اليأس والخمول • وفي اليأس متى انتفضت عنه غبار الخمول قوة خبيثة قتالة لا عقل فيها ولا ادراك

في كل انسان جذوة من الخير لا يخمدها رماد الغواية والضلال مهما تكاثفت فوقها • في كل انسان شيء من الحب والحقيقة مهما اوغل في المنكرات ونكب عن السراط المستقيم وان انا صافحت مجرماً فانني اصافح تلك الجذوة الكامنة تحت رماد شقائه وذاك القليل من الحب الراقد تحت بلائه • انني اصافح الشقي الباغي لانه ساعة يقف امامي هو من الصالحين ولو الى حين • ولا يهمني اذ ذاك ما كان من ماضيه ولا ما سيكون من مستقبله • لا • فانه لا يصدني عن مصافحته سيئة اتاها او جناية اقترفها او عار احاق به • ساعة اخذ يده بيدي تتصل كهربائية جسمي بجسمه وتؤهله لمصافحتي في تلك الآونة •

خير الكتب وانفسها كتاب لا يتركني بعد ان اطالعه في الحال التي ألفتها . كتاب يحرك فيَّ عاطفة شريفة جديدة . او قصداً كبيراً جديداً . او فكراً سامياً جديداً . كتاب يزحزحني من مكاني او يدفعني لازحزح من هم حولي . كتاب يفيقني من سباتي العميق . او ينهض بي من حمأة الخمول . او يهديني الى طريقة احل بها عقدةً من عقد الحياة ولكن مثل هذا الكتاب على كثرة ما تصدره المطابع الحرة اليوم من القصص والروايات اصبح كالامرأة الفاضلة التي ينشدها سيدنا سليمان

* * *

كليمبروتوس اليوناني رمى بنفسه في البحر بعد ان انتهى من قرأة كتاب افلاطون في خلود النفس وفي فعلته هذه الخارقة ثناء عظيم على المؤلف وعلى القارئ معاً اذ لو لم يقنع كليمبروتوس بحجة افلاطون لما كان فادى بحياته ليبرهن عن ايمانه ولو لم يعتقد افلاطون بما كتبه لما استطاع ان يفحم كليمبروتوس فمثل كتابه هذا يزحزح حقاً ولكنه يزحزح جداً — يزحزح القارئ دفعة واحدة عن هذا العالم . فهو اذاً لا ينفع كثيراً . ومن حظنا انه لم يترجم الى اللغة العربية . على اني وان كنت اشك في صحة عقل كليمبروتوس لا اشك قط في شجاعته التي حملته على ان يعمل بما اعتقده صحيحاً . فما قولك بالمسيحيين والمسلمين واليهود ، الذين يعتقدون او في الاقل يقولون بالخلود ، ويبكون امواتهم

كما لو كانت انفسهم ايضاً للدود ؟ فان كنا في اعتقادنا صادقين ان كنا واثقين كافلاطون وكليمبروتوس ان النفس لا تموت ينبغي ان نفرح في الاقل ساعة تطلق من اسر الجسد. على انني لا اسألكم أن تفرحوا ولا اسألكم ان ترموا بانفسكم في البحر لتبرهنوا عن ايمانكم العجيب. ولكن لا تصموا الاحياء ساعة الموت بالعويل والنحيب.

* * *

الحكيم لا يخشى الموت لعلمه ان الموت بعيد عن الانسان ما زال حياً. ومتى مات الانسان يصبح بعيداً عن الموت.

خير الاحسان واجمله ما جاد به القلب والعقل معاً. وما بقي ففيه الكذب والادعاء. جد علي بشيء من القوت فآكله وبعد قليل اصبح كما كنت قبل احسانك. ففتاتك لا يغير في نفسي شيئاً. ولكن هات منك فكراً سامياً جميلاً فيتحلل في القلب والدماغ ويخالط النفس مني فترثه عني الاجيال. في كل قوة ادبية – اي عقلية روحية – شيء من الخير الخالص النقي. واذا كان فيك يا اخي شيء من هذه القوة الادبية فهذا الخير يصدر عنك ان شئت او لم تشاء وينفعني انا ان شئت او لم اشأ.

* * *

لما حدد « ديكار » المادة اهمل ذكر القوة والحركة اللتين هما من مزاياها وخصصها بمزية التمدد فقط . اما الحركة التي روقبت فيها فعزيت الى قوة خارج المادة ومستقلة اي الى الله . ولكننا اليوم نتلقن في المدارس مبدءا امسى من اوليات الطبيعيات وهو ان القوة والحركة والتمدد كلها من مميزات المادة . وان في كل جسم جامد اوآلي قوة كامنة تستحيل حركة ميكانيكية . وان الحركة الدائمة هي من طبيعة المادة وان الاجسام مؤلفة من جواهر هي ابداً متحركة . ولكن قد يعود العلماء بعد البحث الطويل الى غلطة « ديكار » ومتى عرفوا ما هو الاثير واكتشفوا سراً واحداً من اسراره يصححون لا شك تعاليمهم الطبيعية

ان سيئات مشاهير الناس كحسناتهم من حيث ان الغلو يكون غالباً مصدر الاثنين . وان ما يقوله فيهم المقربون المدلسون لأخبث مما يقوله الحسَّد المبغضون . لما مات الهر كروب صاحب معامل المدافع الشهيرة اشاع اصحابه انه كان يكره الحرب كرهاً شديداً . فيا لها من اهانة يلحقها المدلسون بالاموات . وماذا تنفع الناس عاطفة كروب المكربة وقد استخدم ثروته العظيمة في استنباط ادوات الحرب واصطناع موادها ؟ اما اذا كانت المدرعات والمدافع تصنع لقتل القتال لا لاحيائه فيكون الفضل في إبطال الحروب . لبضاعة الهر كروب .

* * *

من الناس من يعجب ببعض ابطال التاريخ ليحذو حذوهم في السيئات لا في الحسنات فيتحل لحماقته من شذوذهم الاعذار ويتخذ من عيوبهم مثالاً لعيوبه

* * *

في سراة القوم او الذوات من لا يمتازون عن اصغر الناس الا بمن يحوم حولهم من المداهنين والمدلسين والدجالين

* * *

النفوس ادوية يشترك في مزجها الله والانسان . فمنها المرة ومنها الحلوة ومنها الحامضة ومنها المزة ومنها – وهذه اكره من كل الادوية – ما لا طعم ولا لون لها

الحكيم من اشتغل في سفينة نفسه كل يوم وظل متأهباً والجاهل المغتر بامواله لا يهتم بذلك حتى يسمع هدير الأمواج ويراها تتصاعد حول قصوره ولكن الطوفان ياسيدي لا ينتظرك وساعة يجيء لا ينفعك اهتمامك وتجديفك وصراخك « هاتوا خشب هاتوا مسامير اين الخدم اين هؤلاء الحمير » آه يا سيدي ان أذنيك لاطول من اذني خادمك فهو اليوم في فلكه يسبح ويسبّح وانت في غيك تموت

* * *

قالت امرأة الفيلسوف لزوجها ارى الناس ينددون بك ويسفهون اقوالك وينكرون عليك تصرفك . فاجابها الفيلسوف ان هذا من حبهم يا حبيبتي . فلو كنا كالجماد او كالثيران لما كان الناس يفكرون بنا لما كانوا يذكروننا لا في خيرنا ولا في شرنا . وقد تتعجبين كيف ان الحب يحملهم على السفاهة والقباحة ولكن اذا قلت لك ان البغض انما هو بطانة الحب افلا يزول عجبك . نعم ان هذه العاطفة السرية الخفية وان شوهها الجهل وافسدها التعصب وصهر عينيها الحسد تظل حباً على الرغم من صاحبها . ولكن اذا وقفت على رأسها تظهر بطانتها فتبدو سوءتها فيظنها الناس بغضاً ويكرهونها

* * *

العالِم لا يستنكف من تغيير عقيدة له او اصلاحها اذا استوجبت ذلك الحقيقة

ما افقر الانسان اذا كان يستطيع ان يرفع نفسه فوق نفسه

* * *

حاولت مرة ان اكره رجلاً يحبه قلبي فركبت في شنآني مركب الغش والخداع وكنت واهم انني ابغضه وانا في الحقيقة احبه . وظللت كذلك الى ان ثارت عليَّ نفسي فونبتني وطلبت اليَّ ان اصلح الامر — ان اكفر عن ذنبي تجاه ضميري وتجاه

صدبقي . فرحت اطلبه لهذه الغاية فما وجدته . بل وجدته طريح الفراش . وجدته وارباه جثة باردة . مات صديقي قبل ان اراه واكلمه واستغفره . مات قبل ان يسمع الكلمة التي يعذب في فمي لفظها . مات ولم ير ثوب الخداع الذي حرقته حول نعشه . مات والموت في عينيه يحدجني ويقول – وهل سمعت انني امهلت مرة احداً من البشر ليصلح امره . ليسدد حسابه وان كنت لا تراني ولا تسمع صوتي الا تفهم نفسك نبأى . افلا يشعر ضميرك بثقل يدي؟– بلى ورب السماوات . الموت يثأر بالصدق والحق . الموت ينتقم من الحب الواقف على رأسه . فان كنت في شيء من مثل هذا ايها القاريء العزيز عجّل – عجّل الى صديقك الى حبيبك قبل ان يحول الدهر بينه وبين حبك . قبل ان يمنعك الموت من اصلاح امرك وتسديد حسابك



تم الجزء الاول من الريحانيات ويليه

الجزء الثاني واهم ما فيه الخطب

والشعر المنثور



فهرس الكتاب